وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

العنوان :

مكـانـــــــــــــة الفضـيلـــــــــــــــة عند مكيافيللي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة

إعداد الطالب: إشراف الأستاذ:

بوبقرة الصادق د. يوسف زرافة

أعضاء اللجنة المناقشة

..... رئيسا
..... مقررا
..... عضوا مناقشا
..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2015 - 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى شمعة احترقت من أجل أن تضيء لنا درب الحياة إلي التي أحبها قلبي لا لأنها أمي بل لأنها استحقت ذلك مني

إلي ابنة الشهيد أمي أطال الله في عمرها

إلي ابنة أخي فرح وأختها رحاب

إلي كل أفراد العائلة

إلي جميع الأصدقاء

كوكو. الغاني ميباركي. بلال. عادل . عمار. جمال الدين. عامر. معتز. خمسي. محمد.

إلي من لا تطيب الحياة دونهم

رابح. نورالدين. عثمان. فضيل.

إلي حبيب قلبي وتوأم روحي

أمين أحمد.

إلي من غيبتهم عنا الأقدار.....ووارينا عنهم الترابب أحياء.....فجافتهم العيون

لكنهم في القلب رغما عنا حاضرون

إلي كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي

التشكرات

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور : **يوسف زرافة** على كل النصائح والتوجيهات التي قدمها لنا والتي لولاها لما كان لهذا العمل أن ينتهي

كما لا يفوتني أن أشكر أساتذتي الكرام الذين تعاقبوا على تدريسي وإلى كل الذين شجعوني على إنهاء هذا العمل المتواضع.

مقـــدمة

مقدمة

عندما دون **ماكيافيللي** نظريته السياسية والتي تمحورت خاصة في كتابيه "الأمير والمطارحات" لم يكن يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه النظام السياسي، حيث رفض منذ البداية الطريقة التي عالج بها المفكرون والفلاسفة من قبل مواضيع السياسة. حيث رأى أن هذه الطريقة غير صائبة ولا يمكن أن تؤدي إلى نتائج تستفيد منها الدول والحكومات في إطار سعيها نحو تحقيق غايتها. ونظرة **ماكيافيللي** هذه نابعة من كونه مارس السياسة عمليا عن طريق توليه العديد من المناصب الإدارية في فلورنسا والتي مكنته من اكتساب مجموعة من الخبرات والمعارف حول الطريقة التي يتصرف بها الأفراد في الواقع والمنطق الذي يحكم تصرفات الحكام والأمراء في علاقتهم مع بعضهم البعض، مما جعله يقتنع بضرورة البحث عن السبل الكفيلة التي يمكن أن تحقق الغاية المرجوة في إطار ما هو عليه الحال في الواقع دون التطلع إلى خيالات وأوهام لا توجد سوى في الأذهان.

لقد كان الواقع السياسي والاجتماعي الذي عايشه وعاصره **ماكيافيللي** هو المنطلق الذي دفع به إلى كتابة مؤلفاته حيث كانت ايطاليا مقسمة إلى عدة دويلات صغيرة متصارعة ومتناحرة فيما بينها مما أدى إلى إضعافها إلى درجة وقوعها فريسة سهلة في يد الأعداء من الدول المجاورة. هذا الوضع الذي آلت إليه كان له أثر كبير على نفسية **ماكيافيللي**، مما دفعه إلى تجنيد قلمه في سبيل رؤية وطنه ايطاليا موحدة قوية، مستغلا في ذلك تجاربه الطويلة كسياسي متمرس إلى جانب اطلاعه الكبير على التاريخ القديم خاصة تاريخ روما قديما من خلال مؤلفات "تيتوس ليفوس"، حيث عمد إلى تشخيص الأسباب الرئيسية التي أدت إلى مثل هذا الوضع الذي آلت إليه ايطاليا وهي التي كانت في زمن غير بعيد مركزا لحضارة عريقة.

إن **ماكيافيللي** وهو يشخص الأسباب التي أدت إلى ضعف ايطاليا لم يكن يهمل البحث في الأسباب التي أدت بالإمبراطورية الرومانية قديما إلى تحقيق عظمتها وازدهارها

طوال كل تلك القرون، وهذا من أجل إيجاد العلاجات المناسبة والضرورية لمثل هدا الداء الذي فتك بايطاليا.

وقد اتضح له من خلال دراسة وتحليل التاريخ القديم لروما أن من بين أهم العوامل التي أدت إلى مثل هذه العظمة هو تحلي مواطنيها بالفضيلة عكس ما هو عليه الحال في إيطاليا حيث عمت فيها الشرور وعم فيها الفساد وضعفت لديها مبادئ الأخلاق والفضيلة مما أدي إلى إضعافها.

من خلال هذا يمكن القول أن للفضيلة مكانة مهمة في الفكر السياسي عند ماكيافيللي إذ يعتقد أن رفعة وضعف الدول مرتبط بتوافر هذه الخصلة من عدمها. ولتوضيح هذه المسألة ارتأينا تحليل الإشكالية التالية :كيف حلل **ماكيافيللي** الواقع السياسي الإيطالي الذي أصابه الضعف والهوان وتاريخ روما قديما الذي تحققت فيه العظمة والازدهار لتبيان مكانة الفضيلة في تأسيس الدول والحفاظ عليها؟

ومن أجل معالجة هذه الإشكالية اتبعنا المنهج التحليلي وهذا من خلال تحليل وتفكيك النصوص التي وردت في مؤلفات وكتابات **ماكيافيللي**، كما اعتمدنا على المنهج التاريخي من خلال محاولة الربط بين الفكر السياسي **الماكيافيللي** والواقع السياسي الذي عايشه وعاصره.

أما عن الأسباب التي دفعتنا للبحث في هذا الموضوع فلا يمكن أن تكون إلا رغبة منا في فهم الفكر السياسي **الماكيافيلي** من خلال تسليطنا الضوء على إشكالية رأينا أنها محورية وأساسية في عملية استكناه المغزى الحقيقي للنظرية السياسية **الماكيافيلية** التي طالها الكثير من الانتقاد، وإلي جانب هذا حاولنا من خلال هذا العمل المتواضع محاولة إثراء مكتباتنا بدراسة متخصصة للمفكر الايطالي والتي رأينا أننا بحاجة إليها متمنين بذلك أن نكون قد ساهمنا ولو بالقدر اليسير في تحقيق مرادنا.

وفي سعينا لإتمام هذا العمل المتواضع واجهتنا العديد من الصعوبات لعل أهمها نقص المراجع المتخصصة في دراسة الفكر السياسي عند **ماكيافيللي**، بالإضافة إلى صعوبات أخرى عسرت علينا تحقيق هدفنا والمتمثل في تقديم عمل أفضل، إذ لم نجد أي مرجع يتحدث بصفة خاصة عن الفضيلة عند ماكيافيللي، لذلك فقد كان جهدنا منصبا حول محاولة تتبع مصطلح الفضيلة من خلال مؤلفات **ماكيافيللي** خاصة منها كتابي الأمير والمطارحات من أجل معالجة الإشكالية التي طرحناها.

وفيما يخص الخطة التي اعتمدنا عليها لمحاولة تحليل الإشكالية المطروحة فقد ارتأينا تقسيم هذا البحث إلى ثلاث فصول. جاء الفصل الأول معنونا ب"المبادئ والمنطلقات التي اعتمدها **ماكيافيللي** في بحثه السياسي". وهذا ضمن ثلاث مباحث حيث جاء المبحث الأول بعنوان "فساد الجنس البشرى" حاولنا من خلاله استعراض رأي **ماكيافيللي** فيما يخص الطبيعة البشرية والتي اعتبرها ميالة للسوء أكثر من ميلها للخير. أما المبحث الثاني فقد خصصناه للحديث عن الطريقة الجديدة التي عالج في إطارها **ماكيافيللي** موضوع السياسة وختمنا هدا الفصل بمبحث ثالث عنوانه "الغاية والواسطة" حاولنا من خلاله تبيان الرأي الذي انفرد به ماكيافيللي عندما ركز على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار في مجال السياسة الغاية المحققة والتي هي المصلحة العامة بغض النظر عن الوسائل التي تحققها مهما كان نوعها.

أما الفصل الثاني من بحثنا هذا فقد جاء تحت عنوان "طبيعة الفضيلة" وقد قسمناه بدوره إلى ثلاث مباحث :خصصنا أولى مباحثه للحديث عن مفهوم الفضيلة عند **ماكيافيللي** والتي غالبا ما يوردها للدلالة على الشجاعة والكفاية التي تكون موجهة لخدمة المصلحة العامة. أما المبحث الثاني فقد خصصناه للحديث عن منطق الضرورة كما أورده **ماكيافيللي** وعلاقته بالفضيلة، حيث بينا فيه أن خدمة المصلحة العامة تقتضى في بعض الأحيان سلوك طرق معينة بحيث لا يصبح المجال فسيحا فيها للاختيار. وختمنا

هذا الفصل بمبحث ثالث خصصناه للحديث عن الفضيلة بالمعنى الذي ذكره **ماكيافيللي** وعلاقتها بالفضيلة الأخلاقية.

أما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان "مكانة الفضيلة"، وقسمناه هو الآخر إلى ثلاث مباحث: جاء المبحث الأول بعنوان "مكانة الفضيلة في تولي المناصب الإدارية للدولة "بينا من خلاله الأخطار الناجمة جراء وضع مناصب تسيير شؤون الدولة في يد أفراد غير موهوبين. أما المبحث الثاني فقد خصصناه للحديث عن مكانة وأهمية الفضيلة في تكوين أسلحة قوية من أجل الحفاظ على الدولة، وأخيرا المبحث الثالث والذي تحدثنا فيه عن مفهوم الحظ والسلطة التي يملكها في التأثير على الشؤون الإنسانية ودور الفضيلة إذا كانت متوافرة في الحد من سلطة الحظ وتأثيره.

لننهي بحثنا هذا بخاتمة حاولنا من خلالها استخلاص بعض النتائج التي توصلنا إليها والتي رأينا أنها ضرورية وتحل الإشكال.

الفصل الأول

أسس ومنطلقات الفكر السياسي عند ماكيافللي

مدخل:

يعد **ماكيافيللي** من رواد مفكري عصر النهضة الأوروبي الذي امتد في أوروبا إبان القرن الرابع عشر، وعصر النهضة الأوروبي وخاصة في ايطاليا هو عصر التحولات الكبرى في بنية المجتمع الأوروبي على كل المستويات الاجتماعية، والثقافية والعلمية. ولقد تشبع **ماكيافيللي** بمبادئ وأفكار هذا العصر حيث تعلم الكثير من الدروس ولعل من أهم ما تعلمه هو الثورة على الأفكار والتقاليد القديمة التي ورثها عن الماضي فهي ليست بالضرورة صادقة أو موضع إجلال وتقديس. مما جعل كتاباته تأخذ بعدا آخر على غير ما كان عليه الحال في الفلسفة الكلاسيكية.

ولقد كانت الشهرة الداوية التي حققها **ماكيافيللي** نابعة من الكتابين الرئيسين الذين كتبهما وهما كتابا "الأمير" و "المطارحات" ويعد كتاب "الأمير" أكثر الكتب شهرة في تاريخ الفكر السياسي نضرا لجدته وخطورته، حيث حاول **ماكيافيللي** من خلاله تقديم خطة محكمة وناجحة للحكام والأمراء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تأسيس دولة أو الحفاظ عليها.

وبتأثير من روح العصر الذي نشأ وترعرع فيه، فلقد بدا رافضا الطريقة التي عالج بها الأقدمون مسائل السياسة، حيث سلك طريقا آخر ذو بعد واقعي محاولا بذلك جعل السياسة علما له قواعده ونظمه الخاصة به والتي تتوافق مع طبيعته. إلا أن حجر الأساس الذي اعتمده **ماكيافيللي** تمثل في إعطائه تصورا معينا لمفهوم الطبيعة البشرية وهذا من خلال ملاحظته للطريقة التي تصرف ويتصرف بها الأفراد في الواقع. وبناءا على ذلك حاول **ماكيافيللي** أن يستخلص السبل والوسائل الكفيلة التي تسمح بالتحكم في هذه الطبيعة وفق ما هي عليه.

بناءا على ما سبق يتضح أن فهم الفكر السياسي الذي أورده **ماكيافيللي** في كتابه "الأمير" أو "المطارحات" لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال استعراض الأسس والمنطلقات التي اعتمدها **ماكيافيللي** والتي جعلها حجر الأساس استخلص من خلالها فيما بعد جميع آرائه.

وهكذا فقد حاولنا في هذا الفصل أن نحدد أهم المنطلقات والأسس التي اعتمدها **ماكيافيللي** في بحثه السياسي وهذا لأنها عامل مهم ومساعد بغية فهم باقي آرائه، لذلك حاولنا تبيان نظرة **ماكيافيللي** وتصوره للحالة التي هم عليها الأفراد، لننتقل إلى البحث في الإطار العام الذي عالج فيه **ماكيافيللي** موضوع السياسة، لننتهي إلى تبيان القاعدة التي تبناها **ماكيافيللي** المتمثلة في تبرير الغاية للواسطة ومحاولة توضيح معناها. إضافة إلى محاولة الربط بين الفكر السياسي **الماكيافيللي** والواقع الذي عايشه من أجل تبيان الغاية التي كان **ماكيافيللي** يسعي إلى تحقيقها. ذلك لأن أي فكر مهما كان لا يمكن فصله عن الواقع الذي نشأ في أحضانه.

1-فساد الجنس البشري:

إنّ أول ما يتضح من خلال دراسة الأفكار السياسية التي حفلت بها مؤلفات الفلاسفة القدماء هو اهتمامها الكبير بمسألة تخليص الناس من الحياة المضطربة التي كانت مسيطرة حيث حملوا همّ شعوبهم آملين في ذلك إيجاد منفذ للخلاص من مشاكلهم، وإن اختلفت الطرق فإن الغاية كانت واحدة وهي البحث عن أفضل النظم السياسية التي تحقق لهم هذا الخلاص. لكن ما يلاحظ أن النتائج التي توصلوا إليها حسب **ماكيافيللي** لا تعدو إلاّ أن تكون نظم خيالية يستحيل تطبيقها على أرض الواقع ويعود السبب في ذلك أنّهم بل أن يدرسوا ما هو كائن اتجهوا إلى دراسة ما ينبغي أن يكون وهذه الطريقة تبدو غير صائبة في نظر **ماكيافيللي**.

فإذا كانت السياسة فن حكم البشر فلا يجب الإغفال عن الدوافع التي تحرك سلوك الإنسان في علاقته مع الآخرين حتى نتمكن من استخلاص القوانين التي يمكن أن تتّحكم في هذه العلاقة وتسيّرها. وهذا ما عكف **ماكيافيللي** على تبيانه من خلال قوله :"ولمّا كان من قصدي أن أكتب شيئا يستفيد منه من يفهمون فإني أرى من الأفضل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلا من تناول خيالاته، لا سيما وأن الكثيرين قد تخيّلوا إمارات وجمهوريات لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة وأنّ الطريقة التي نحيا فيها تختلف عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها وأنّ الذي يتنكر لما يقع سعيا منه وراء ما يجب أن يقع إنّما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلا ممّا يؤدي إلى الحفاظ عليه"[1]. وهذا ما دفع "دانغ" في كتابه "تاريخ النظريات السياسية" إلى القول عن كتاب "الأمير" ومؤلفه أنّه أشبه باكتشاف "كولومبوس"

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، تر. خيري حماد (ط1، بيروت : المكتبة التجارية للطباعة والنشر و التوزيع، 1962) ص 208.209.

لأمريكا من حيث اختلافه عن النظريات السياسية المألوفة في عصره، ومن ناحية جدّته التي تضاهي الجدّة التي خالف بها كولومبوس الجغرافية القديمة في عصره.[1]

ولمّا كان الاختلاف واقعا، فإنّ نقطة الانطلاق عند **ماكيافيللي** لا بد أن تكون "الطبيعة البشرية" إذا ما أريد للسياسة أن تقوم على دعائم صحيحة وهذا ما عبّر عنه "موسوليني" في تعليقه على **ماكيافيللي** بقوله :"إذا كانت السياسة هي فن حكم البشر أو بعبارة أخرى تربية أنانياتهم وأهوائهم ومصالحهم بالنظر إلى غايات نظام عام يكاد يخرج دائما عن نطاق الحياة الفردية لأنها غايات تمتد إلى المستقبل. فإذا كانت تلك هي السياسة فلا ريب أنّ الإنسان هو العنصر الجوهري لهذا الفن ومنه يجب الانطلاق"[2]

غير أنّ ما ينبغي الإشارة إليه أن **ماكيافيللي** لا ينطلق من نظام فلسفي ليقدم لنا كشفا عن الطبيعة الإنسانية. كما ذهب إليه فلاسفة "العقد الاجتماعي"*فيما بعد . فهم وإن اختلفوا في تحديد خصائصها إلاّ أنّهم اعتمدوها كفرضية لتبرير الأنظمة التي كانوا يدافعون عنها . بل استخلصها من تجاربه الخاصة بوصفه تقلد العديد من المناصب الإدارية في "فلورنسا" حيث لاحظ عن قرب الطريقة التي يتعامل بها الأفراد مع الحكّام والطريقة التي يتعامل بها الحكام مع بعضهم وذلك من خلال البعثات التي قادته إلى العديد من الدول المجاورة مثل ألمانيا وفرنسا إلى جانب اطلاعه على الكثير من الحوادث من خلال دراسته العميقة لكتب التاريخ التي بيّنت له الكثير من الحقائق وهذا ما عبّر عنه في وصفه لهاته الطبيعة من خلال قوله :"إنّ الأفراد في الواقع ناكرون للجميل متذبذبون ومدّاجون يرتجفون أمام المخاطر ويتعطشون للربح السهل، وطالما كنت محسنا لهم فهم معك إذا كان الخطر بعيدا عنهم، وهم

---

[1]) فاروق سعد، **تراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعده**،(ط، 24، بيروت : دار الآفاق الجديدة،2002) ص 24.

[2]) المرجع نفسه، ص 06.

* فلاسفة العقد الاجتماعي (روسو. Rousseauت.1772)، (جون لوك. JohnLocke ت.1703) (هوبز Hobbs ت.1676).

الذين سيبذلون في سبيلك دمائهم وأموالهم وحياتهم وأبنائهم وما إن يقترب الخطر منهم حتى ينقلبون عليك ويتنكرون لك"[1]. وفي نص آخر يقول :"أشار جميع كتّاب السياسة عبر التاريخ الطويل إلى أنّ هناك عددا ضخما من الأمثلة التي تقيم الدليل على أنّ الواجب يدعو عند تأليف الدول والتشريع لها إلى اعتبار الناس جميعا من الأشرار وإلى أنهم ينفّسون دائما عمّا في ضمائرهم من الشّر، عندما تتاح له الفرصة للتّنفيس عنه"[2]. ومن خلال هذا يتبيّن أنّ **ماكيافيللي** يقف موقفا ناقدا وسلبيا من طبيعة البشر، حيث يرى أنّ الناس لا يفعلون الخير إلاّ إذا اضطرّوا لذلك أو كان يصب في مصلحتهم ودون ذلك فهم على استعداد دائما ليلحقوا الأذى ببعضهم كلمّا وجدوا إلى ذلك سبيلا.

ويقيم **ماكيافيللي** العديد من الأدلة من التاريخ الروماني القديم التي تثبت ذلك ومن بينها ما أشار إليه في كتاب "المطارحات" من خلال حديثه عن ذلك الصراع الذي كان قائما بين النبلاء والعامة. يقول بعد أن طرد الملوك "الترقونيين"* بدا أنّ الانسجام كان يسود العلاقات بين الشعب ومجلس الشيوخ في روما، والنبلاء أنفسهم تخلوا عن كبريائهم وأصبحوا يتحلون بما يتحلّى به الشعب من روحية ومزاج، بل حتى العامّة يحتملونهم كل الاحتمال وهذا ما لم يكن عهد الملوك الترقونيين لما كان يخشاه النبلاء أن يقوم اتحاد بين الشعب والملوك إن هم أساءوا إليه. لكن وبمجرد طرد الملوك الترقونيين وما كادت مخاوف النبلاء تزول حتى شرعوا يضطهدون الشعب بمختلف الوسائل[3].

ومن هنا يتضح أن السمة الأساسية البارزة في الإنسان هي "الأنانية" وهي مصدر فساده فالفرد دائما ينزع نحو التهرب من القوانين والتمرد عليها كما أنّه دائم التهرب من دفع

---

[1]) ماكيافللى، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد (د. ط، الجزائر : دار تلانتيفيت للنشر)، ص102.

[2]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 224.223.

* الترقونيين: Altrkonaon اسم يطلق على ملوك روما الأوائل.

[3]) المصدر نفسه، ص 224.

الضريبة أمّا إذا قامت الحرب فقليل هم الأبطال الذين يضحون بأنفسهم من أجل خدمة الدولة [1].

ومادامت هذه هي الحالة التي هم عليها الأفراد فلا بديل عن سن القوانين والتشريعات التي تلزم الأفراد على اتباعها. فالدولة هي وحدها القادرة على الحد من ذلك الصراع القائم بين الأفراد والجماعات بواسطة قوة القانون. وهذا ما أشار إليه **ماكيافيللي** في حديثه عن الطريقة التي تحقق بها الاجتماع. فبعد أن كان الأفراد متفرقين يعيشون فرادى دفعتهم كثرتهم إلى الاقتراب من بعضهم البعض نظرا لعجزهم عن تحقيق جميع حاجياتهم وتوفير الحماية لأنفسهم وحرصا منهم على تحسين وسائل عيشهم ومدفوعين بأنانيهم تطلعوا إلى أحدهم يفوقهم قوة وشجاعة فعملوا على تنصيبه قائدا لهم بحيث يدينون له بالطاعة ويحققون من خلاله غاياتهم[2].

ولمّا كانت طبيعة الأفراد على ما هي عليه من فساد فإنها غالبا ما تأتي من التصرفات التي من شأنها أن تعرقل نمو الدولة، فهي مدفوعة بأنانيتها وكل ما تريده هو مصالحها الشخصيّة حتى ولو كانت على حساب الآخرين دون النظر إلى المصلحة العامة وهكذا هو الحال بالنسبة لجميع الأفراد ممّا من شأنه أن يخلق حالة من الفوضى والاضطراب الناتج عن تصادم المصالح الشخصية للأفراد وما ينتج عنه من ظلم، لذلك كان لزاما على الدولة أن تفرض قوانين وتشريعات للحد من هذه الأنانية فيصبح القانون هو الطريق الوحيد للخلاص سياسيا.

غير أنّ القوانين والتشريعات لا تصلح إلاّ في دول لم ينتشر فيها الفساد أمّا الدول التي تفشى فيها الفساد فإن القوانين والتشريعات تصبح غير ذات أهمية. ويتجه بنا

---

[1]) فاروق سعد، مرجع سابق، ص 9.

[2]) فيدرين الين، **ماكيافللي**، تر. أميرة الزين،(ط 1، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1974) ص 35.

ماكيافيللي إلى التاريخ ليبين لنا كيف استطاعت الإمبراطورية الرومانية استعادة حريتها وابتكار العلاجات لمشاكلها لما كانت الفضيلة متجلية فيها حيث يقول: "وهكذا لم يكن الشعب الروماني قد بلغ حدا كبيرا من الفساد عندما استعاد حريته، فقد تمكن من الحفاظ على نفسه عندما مات أبناء بروتوس وعندما حلت نهاية الملوك الترقونيين، وتمكّن كذلك من الحفاظ على أساليب حكومته ولو كان هذا الشعب قد غدا فاسدا لما استطاع العثور على أدواء لوضعه لا في روما ولا في مكان آخر"[1].

ولا يعير **ماكيافيللي** كثير اهتمامه لفساد الجماهير بقدر اهتمامه بفساد الحكام والأمراء والمؤسسات التي تعمل على تشريع وتطبيق القوانين. وساهم في بلورة هذه الفكرة بعثاته الدبلوماسية التي قادته إلى كل من فرنسا وألمانيا وما لاحظه من تمتع هذه الدول بالقوة، والسبب لا يعود في رأيه إلى طبيعة وطيبة هذا الشعب أو تحليه بالفضيلة بل لأنّ على رأسها ملكا حفظ لها وجودها لما تمتع به من صلاح [2] ثمّ إنّ الجماهير قد تكون قصيرة النظر فترى الأمور في ظاهرها إلا أنّها لا تخطئ في القضايا المصيرية وهذا ما حدث في رومة القديمة لما تعلق الأمر بتعيين منصب "القناصلة" حيث رأى العامة أنهم أحق بالمنصب لاعتبارات عديدة منها أنهم أكبر عددا من النبلاء إلى جانب أنهم من يتعرض للخطر في الحروب كما أنهم من حافظ رومة وحريتها، مما جعل رغبتهم هذه تبدو معقولة في الحصول على هذه السلطة. لكن أثناء عملية الانتخاب هذه جاءت النتائج مغايرة، وهذا لأن العامة أقروا بما هم عليه من ضعف وأنهم لا يستحقون هذا المنصب لعدم كفاية رجالهم فقرروا العودة إلى أولئك الذين يستحقون هذه المناصب[3].

لذلك فإن المسؤولية كلها تقع على عاتق الحكام والأمراء لما لهم من تأثير مباشر على الحياة السياسية بما أنهم من يقف وراء كل القوانين والقرارات، أما العامّة فهم بعيدون

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات** ، مصدر سابق، ص 280.

[2]) المصدر نفسه، ص 37

[3]) المصدر نفسه، ص 373.372.

كل البعد عن مركز القرار السياسي لذلك فالأثر الذي يتركه الأمير أو الحاكم الفاسد يكون وقعه أكبر.

وكما قلنا سابقا إذا عمّ الفساد فإن القوانين والتشريعات تفقد كل مبرر لها، لأنها تصبح وسيلة غير فعالة ولا يمكن أن تحقق أي نتيجة من النتائج المبتغاة. ومن هنا كان لزاما على من يقف على هرم الدولة أن يكون من الذكاء والكفاءة ما يؤهله إلى تحليل المعطيات المتاحة أمامه ليستغلها أحسن استغلال لتحقيق الغاية المرجوة فلا ينبغي أن يهمل ما هي عليه حالة الشعب من صلاح أو فساد لأن على ضوئها يتحدد معيار الممارسة السياسية الناجحة فلا يعقل أبدا أن يطبق نظام جمهوري في دولة غدت فاسدة كل الفساد وفي هذا الصدد يقول **ماكيافيللي** :"من الصعب أو من المستحيل الحفاظ على النظام الجمهوري في دولة غدت فاسدة، لذلك من الضروري إدخال طراز من الحكم يشبه الملكي أكثر من شبهه بالديمقراطية وذلك لكي يكون في الإمكان كبح جماح غطرسة أولئك الذين يصعب إصلاحهم بالطرق القانونية [1].

ولمّا كانت الأنانية خاصية الأفراد الأساسيّة، فلا يفعلون الخير إلاّ عند الضرورة وكان الفساد كليا وكانت القوانين لا تنفع معها فإن الضرورة تحتم كما يرى **ماكيافيللي** قيام نوع من الاستبداد شريطة أن يكون من النوع الذي يصلح لا باعتباره طغيانا لأنّه سيفقد مبرر وجوده المتمثل في الحفاظ على الدولة.

فإذا كانت القوانين هي للحد من ميل وسعي الإنسان للنزاع والتملك وهذا ما يبرر قيام المشرع إلاّ إنّه يفقد مشروعيته بمجرد تخلي الأفراد عن الأخلاق الفاضلة ويكون الاستبداد هو الطريقة المثلى لتحقيق الأخلاق الشعبية [2]. أمّا الحكام الذين يغفلون عن هذه الحقيقة فإن مآلهم الدمار، ويضرب **ماكيافيللي** العديد من الأمثلة من التاريخ القديم والتاريخ المعاصر

---

[1]) المصدر نفسه، ص 291.

[2]) فاروق سعد، مرجع سابق، ص 248.

لتبيان هذه الحقيقة عندما أشار إلى فشل الراهب "سافونارولا"* الذي ركّز في سياسته على الوعظ والنصح والإرشاد وإصدار التعاليم والقوانين متجنبا استخدام القوة متجاهلا بذلك ما هم عليه الأفراد من أنانية وسوء فكانت نهايته الدمار حيث يقول :"إن الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة في كل شيء يصاب بالحزن والأسى عندما يرى نفسه محاطا بهذا العدد الكبير من الناس الذين لا خير فيهم"[1].

ولهذا يحذّر الأمراء والحكّام من سلوك هذا الطريق كما يحذرهم من سلوك مسلك الأنبياء العزل ما دامت العواقب معروفة حيث يقول :"حدث وأن انتصر جميع الأنبياء الغير العزّل، وهلك الأنبياء العزّل لأنّ طبيعة البشر متقلبة ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور ولكن من الصعب أن نبقي على إيمانهم هذا، ومن هذا وجب تنسيق الأمور بحيث يمكن استخدام القوة لنكرههم بالقوة بما ارتدوا عنه، ولو كان موسى وكورش*وروملوس** عزلا لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يمارسون شرائعهم أمدا طويلا"[2].

كثيرا ما نجد العديد من الكتابات التي تدين ما ورد في مؤلفات صاحب كتاب "الأمير" حتى أصبحت سياسته توصف بأبشع الأوصاف، كما أصبحت رمزا لذلك الحاكم المستبد الذي يستعمل كل الوسائل مشينة أو غير مشينة من أجل تحقيق غايته. لكن الحقيقة أنه كان محللا بارعا للواقع السياسي والاجتماعي الذي عاصره فلقد أخذ على عاتقه منذ البداية مسؤولية تخليص ميدان السياسة من الدراسات الخيالية والمثالية، وهو يشبه عمله بعمل الطبيب، فإذا كان العلاج أولى خطواته التشخيص الجيد فإنه عمل على تشخيص الداء الذي كانت تعاني منه إيطاليا، وكما أن الدواء الذي يصفه الطبيب قد يكون مرا إلاّ انه يجلب

---

*سافونارولاSavonarole : راهب و مصلح إيطالي حكم فلورنسا بين (1494.1498) ت،1498

[1]) ماكيافللي، **الأمير**، تر. فاروق سعد،(ط.2، بيروت :منشورات دار الآفاق الجديدة، 1982)، ص 136.

* كورش : koursh مؤسس إمبراطورية فارس،(ت 527 ق م)، المطارحات، ص 492.

** روملوس: Rommelos إمبراطور روماني عاش في الفترة الممتدة ما بين (771.717 ق.م)

[2]) فاروق سعد، مرجع سابق، ص 11.

الصحة. فكذلك الأمر نفسه قد تكون القوة غير مستساغة إلاّ أنها تبقى الحل الوحيد في ظل الظروف التي تعيشها إيطاليا.

وذلك لأنّه إذا عمّ الفساد فإنّ الحلول الجذرية هي الطريقة المثلى، ولا يتحقق ذلك إلاّ من خلال رجل قوي يملك كل السلطة من أجل إعادة إحلال النظام وحمل الأفراد على التخلي عن أنانيتهم وخدمة المصلحة العامة، غير أن السلطة المطلقة التي يملكها الأمير ينبغي أن يستخدمها بحكمة كبيرة. فلا ينبغي أن تتجاوز الحدود لتصبح أداة مساهمة في ازدياد الفوضى والاضطراب، وكل هذا يتوقف على الحنكة التي يجب توافرها في الحاكم من أجل تقدير كل حالة من الحالات التي تواجهه.

أشرنا سابقا أنّ القوانين والتشريعات تكون صالحة في الدول التي لم يعم فيها الفساد وذلك لأنّ الصراع الذي ينشأ بين طبقاتها يصبح محركا يدفع بالدولة إلى التطور على عكس الدول التي انتشر فيها الفساد حيث يصبح عامل هدم نتيجة عدم الاستفادة من هذا الصراع ولتأكيد ذلك يقول **ماكيافيللي:** "إنّ الصراعات التي حدثت في الإمبراطورية الرمانية قديما غالبا ما أدت إلى تقوية مؤسساتها وساهمت في زيادة الحرية، حيث من السهل أن يرى الإنسان هذه النتيجة التي وجدت في روما منذ أيام الملوك الترقونيين إلى عهد الغراشيين وهي فترة تمتد أكثر من ثلاث مئة عام، لم تكن الفتن التي تقع في روما لتؤدي إلى الإبعاد إلا نادرا، وإلى سفك الدماء إلاّ في حالات نادرة، ولهذا لا يستطيع الإنسان أن يعتبر مثل هذه الاضطرابات مؤذية ولا أن يعتبر مثل هذه الجمهورية مجزأة عندما يرى أنه في غضون هذه الفترة الطويلة لم تبعث إلى المنافي نتيجة للخلافات التي وقعت فيها أكثر من ثمانية مواطنين أو عشرة ولم تعدم إلاّ عددا قليلا لا يذكر أبدا... ولا يمكن لأيّ عاقل أن يسم مثل هذه الجمهورية بأي حال بوصمة الشقاق فيها بعد أن يرى أن هذه الحوادث البارزة من الفضيلة التي وقعت فيها ذلك لأن الأمثلة الطيبة لا تصدر إلا عن الثقافة الطيبة، ولا تنجم هذه بدورها إلاّ عن القوانين الممتازة التي لا توضع في مثل هذه الحالة إلا بعد وقوع الفتن التي يتحامل الكثيرون عليها دون وعي ودراسة لأنّ من يدرس نتائجها لا يجد أنها أدّت إلى

أيّ عمل من أعمال العنف الذي يتنافى مع الخير العام بل أدت على النقيض من ذلك إلى وضع قوانين وتنظيمات أثمرت النفع للحريات العامة [1]. كما أن الصدامات التي وقعت بين النبلاء والعامة إثر انهيار الملوك الترقونيين أرغمت البحث عن علاجات وهو ما كان من خلال تعيين التربيون (حماة الشعب) لتحقيق الوساطة بين الشعب ومجلس الشيوخ في روما من أجل الحد من سلطة النبلاء وهذا ما دفع **ماكيافيللي** إلى القول :"في كل جمهورية يكون هناك اتجاهان مختلفان أحدهما للشعب والآخر للطبقة العالية وأنّ كل تشريع من التشاريع المواتية للحرية لا ينجم إلا عن الصراع الذي يقع بين الطبقتين"[2].

نستنتج من كل ما سبق أنّ **ماكيافيللي** يقف موقفا ناقدا ومتشائما من الإنسان وطبيعته، وهو لا يتحدث عن أبناء جلدته فقط بل يرى أنّ الأفراد تصرفوا ويتصرفون على نفس الحال في كل مكان وزمان، فطبيعة البشر واحدة وأهوائهم وعواطفهم لا تتبدل ولا تتغير وفي هذا يقول :"إذا كان من المقرر أن نقارن بين الحاضر والماضي البعيد فإن في وسعنا أن نرى بسهولة أن ثمة رغبات متشابهة وعواطف واحدة تكون موجودة دائما في جميع الأوقات وفي كافة المدن وعند مختلف الشعوب"[3].

وبني رأيه هذا من خلال استقرائه لحوادث الماضي والحاضر فالإنسان واحد وما تأثر به في الماضي سيضل يتأثر به في المستقبل حيث يقول :"وعلى هذا فان من يدرس التاريخ الماضي لمدينتنا فلورنسا هذه ويقارن بين ما وقع فيها آنذاك وما حدث فيها في العهود الأخيرة يجد دائما أنّ الشعبين الألماني والفرنسي كانا دائما متشبعين بالطمع والكبرياء والشراسة وعدم الصدق وهي خصائص اتّصف بها هذان الشعبان"[4]

---

[1]) ماكيافللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 127.

[2]) المصدر نفسه، ص 266.

[3]) المصدر نفسه، ص 351.

[4]) المصدر نفسه، ص 752.

وما دام الأمر كذلك فان الخطأ كل الخطأ يقع عل عاتق الأمراء والحكام الذين أهملوا الطريقة التي سلكها الأقدمون في معالجة أمورهم. لذلك على كل أمير رغب في الحفاظ على نفسه ودولته أن يستخلص العبر من دروس الماضي التي جعلت من روما إمبراطورية عظيمة.

لكن إذا كانت الطبيعة البشرية من أهم مميزاتها الفساد، ألا يكون هناك تناقض في الفكر **الماكيافيلي** عند حديثه كما قلنا سابقا أنّ الحكم المطلق ما هو إلا مرحلة انتقالية لمرحلة تالية يكون فيها النظام جمهوريا ؟ألا يتطلب النظام الجمهوري أناسا فاضلين؟ وبالتالي كيف يمكن تأسيس نظام جمهوري ما دامت الطبيعة الإنسانية فاسدة؟ قد نجد في كتاب المطارحات ما يحل هذا الإشكال حيث يقول في أحد نصوصه :"وجدت الفضيلة وتوجد في كل عصر وكل ما يتغير منها هو توزيعها"[1].

ويتضح جليا من هذا النص أنّ **ماكيافللي** يقر بأنّ التاريخ يثبت أنّ الفضيلة كانت وما زالت موجودة، وما تحقيق روما لعظمتها إلاّ بما توافرت عليه من فضيلة وتلك الفضيلة مازالت في قلوب الايطاليين بما أنّهم الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية يقول :"إنّ ايطاليا تتوفر على طاقات قابلة للإصلاحات الأكثر شمولية وهذا من شأنه أن يفجر الشجاعة الكامنة في أي فرد"[2]. ولا ينبغي الاعتقاد أنّ هذه الفضيلة غير طبيعية في الإنسان وإنّما نابعة من ضغط القوانين حيث يقول :"والفضيلة ليست نابعة من ضغط القوانين إذ لو كان الوضع كذلك فمن أين جاءت فضائل المشرعين"[3].

ولكن هذا لا يبرر أن الناس خيّرون بطبعهم بل كل ما في الأمر أنّه وإن كان الأفراد أنانيين ولا يتصرفون إلا بدافع من الهوى فإنّ هذا لا ينفي أن تكون هناك بعض بذور

---

[1]) المصدر نفسه، ص 155.

[2]) ماكيافللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 162.

[3]) ماكيافللي، **المطارحات**، مصدر سابق ص 155.

الشجاعة والفضيلة ما يحتم علينا القول أن الإنسان في نظر **ماكيافللي** يميل إلى الفساد أكثر من ميله إلى الصلاح وبالتالي فساده نسبي وليس كلي.

2-النسق السياسي والنسق الطبيعي :

إنّ **ماكيافللي** وهو يضع مشروعه السياسي لم يكن يحاكي عالم التأملات المجردة فهو رجل ممارسة فلا شك أنّ ايطاليا قد مثلت الحقل الخاص بهذه الممارسة، لذلك وهو يشخص عناصر ضعف الدولة لم يكن بعيدا عن واقع ايطاليا، وفي نفس الوقت لم يكن يهمل المقارنة مع الدول الأخرى فلقد سنحت الفرصة من خلال بعثاته الدبلوماسية أثناء توليه بعض المناصب في فلورنسا من زيارة العديد من البلدان. وكان الكثير من هذه البلدان قد بلغ درجة من القوة جعلها تشكل خطرا على ايطاليا مثل فرنسا، ألمانيا، إسبانيا لذلك سعى جاهدا لتبيان العوامل التي أدت قوتها. كما عالج الأسباب التي أدّت إلى ضعف ايطاليا.

ولا شك أن **ماكيافللي** عبر عن روح عصره، فها هو عصر القرون الوسطى يتهاوى وملامح عصر النهضة تتجلى. فإن سيطر الفكر الكنسي طيلة القرون من الزمان فها هو يختفي لتبرز معالم عصر النهضة وما حملته من تمجيد للعقل والإعلاء من سلطته.

وقد ذكرنا فيما سبق أنّ **ماكيافللي** ثار على الفلاسفة الكلاسيكيين وطريقتهم في البحث. ليلفت الانتباه إلى نقطة هامة فيما تعلق بالبحث السياسي حيث رأي أن الحكّام أثناء قيامهم بعمل ما كتأسيس دولة أو توسيع إمبراطورية أو قصد المحافظة عليها سلكوا مسارات معينة وهذه السلوكات إن ثبت صحتها في النسق السياسي فهي تشبه إلى حد بعيد القوانين التي تحكم النسق الطبيعي حيث يقول في كتاب "المطارحات" :"فلما كانت الطبيعة بحكم الثبات التي هي عليه لا تخرج عن حكم القانون، فكذلك الأمر نفسه بالنسبة للسياسة هناك قوانين يعمل الناس بموجبها في الحقل السياسي، فإن ثبت صلاح هذه القوانين وتم إقرارها بصورة صحيحة. يجب أن لا تكون أقل عملية من ناحية السلوك السياسي من صلاح بالنسبة للعالم الطبيعي والفيزيائي"[1]. لذلك فعلى الحكام أن يأخذوا حيطتهم وحذرهم إن هم أرادوا الاستيلاء على مدن وممالك تفوقهم قوة واتساعا وضخامة. لأن ما يصيبهم هو عين ما

[1]) المصدر نفسه، ص 12.

يصيب شجرة ذات فروع تفوق جذعها ضخامة فمثل هذا الجذع لا يستطيع حمل الفروع إلا بمشقة كبيرة ويلحق به التكسر والانهيار عند أو ل هبة من الرياح، وذلك لأنّه وبكل بساطة لا يمكن لجذع رقيق من حمل فرع ثقيل [1].

وممّا لا شكّ فيه أنّ **ماكيافللي** ومتأثرا بروح عصره كان يحاول أن يخلّص الكتابات السياسية من التحليلات الخيالية التي كانت سائدة من قبل وذلك لتفطنه إلى إمكانية قيام علم سياسي يشبه في أسسه وقواعده ما هو عليه علم الطبيعة والفيزياء.

ويظهر هذا جليا من خلال مؤلفاته التي جاءت حافلة بالعبارات التي غالبا ما نجدها متداولة في العلم الطبيعي وكمثال على ذلك فقد ذكر وهو بصدد تحليل الكيفية التي تعاد بها الوحدة إلى مدينة منقسمة على نفسها والأخطاء التي يقع فيها الحكام حين يعتقدون أنّ الحفاظ على المدينة يتطلب الإبقاء على نفسها لأنّ الطريقة غير مجديّة والطريق الأنسب ما دام لا يستطيع البقاء صديقا للحزبين المتخاصمين أن يكون إلى جانب أحدهما حيث يقول:"بل ومن الحتمي أن يتحزب الناس في أي نزاع وأن يكونوا أميل إلى أحد الجانبين المتخاصمين"[2].

إذا كانت ظواهر الطبيعة ثابتة على الدوام فإنّ ما يحدث في وقت معين لا يمكن أن يتبدل بتبدل الأزمان. لأنّه يكفي أن تتوفر نفس الأسباب لحدوث نفس النتائج، ويبدوا هذا الأمر مقبولا. لكن ما الذي دفع **ماكيافللي** إلى تشبيه النسق السياسي بالنسق الطبيعي؟

إنّ الحقل السياسي محركه الرئيسي هم الأفراد، وقد قام **ماكيافللي** بدراسة شاملة لسلوكات الأفراد من حكام ومحكومين ليتوصل إلى أنّ هذه السلوكات واحدة فهم يخضعون للأهواء والانفعالات نفسها وما حدث في الماضي والطريقة التي تصرفوا بها هي عينها في الحاضر حيث يقول :"يقول الحكماء ولا يخلو قولهم هذا من التعّقل والأساس السليم، أن على كل من يريد التكهن بالمستقبل، أن يكون عليما بأحداث الماضي إذ أنّ كل ما يقع في العالم

---

[1]) المصدر نفسه، ص 443.

[2]) المصدر نفسه، ص 702.

في أي وقت من الأوقات، لا بد وأن يكون له شبه أصيل بما وقع في القرون الغابرة ويرجع هذا القول إلى الحقيقة الواقعة، وهي أن الرجال هم الذين يسببون كل هذه الحوادث وأنّ عواطف الرجال هي دائما واحدة لا تختلف مطلقا، ولهذا فهي تؤدي دائما إلى نفس النتائج"[1].

وما دامت طبيعة الأفراد واحدة وهم يتصرفون دائما على نفس النمط، فلا شيء يمنع من الاعتقاد أنّ النسق السياسي يخضع لما يخضع له النسق الطبيعي، فإذا كانت الأسباب المتماثلة تؤدي إلى نفس النتائج في ميدان الطبيعة فإنّ الأمر نفسه بالنسبة لميدان السياسة وكما أنه في عالم الطبيعة قد لا تؤدي نفس الأسباب إلى نفس النتائج إذا لم يتوفر السبب الكافي لحدوث ذلك، فكذلك الأمر نفسه بالنسبة لميدان السياسة قد لا تؤدي نفس الأسباب إلى نفس النتائج إذا غابت الظروف التي كانت حاضرة في الأولى.

لذلك فمن الواجب في حقل السياسة أخذ الظروف والأوقات بعين الاعتبار، وقد تكلم **ماكيافللي** عن القلاع الحصون ما إن كانت نافعة أو ضارة للأمراء ورأى أن الحكام اختلفوا في استعمال الوسائل التي تحصن دولهم وتجعلها آمنة فمنهم من جرّد رعاياه من السلاح ومنهم من اعتمد على تقسيم الأحزاب في الدول ومنهم من لجأ إلى إشعال نار الفتنة والفرقة بين الشيع، ومنهم من عمل في بداية حكمه على كسب أولئك الذين رأى فيهم أشخاصا مشبوهين وهناك من بني حصونا وهناك من هدمها إلاّ أنّ **ماكيافللي** يقيم الدليل على أنه من غير الممكن الوصول إلى قاعدة عامة تمدح هذا وتذّم الآخر فتجعلنا نسلك سلوك هذا والامتناع عن الآخر وذلك لأنّ سلوك كل واحد منهم له دوافعه فقد يسلك الحكّام طريق أحدهم فيهدم الحصون مثلا ويغفل عن تكوين قاعدة شعبية متينة فيؤدي به إلى أن يقع فريسة سهلة للأعداء لأنه أهمل الظروف المحيطة بسلوك ذلك الأمير الذي هدّم الحصون لكنّه في المقابل كسب ثقة شعبه فكان سلوكه هذا له ما يبرّره لذلك يقول: "إنه لمن الصعوبة

---

[1]) المصدر نفسه، ص 752.

بمكان أن نقدم قواعد عامة في هذا الموضوع، وذلك لأن كل شيء يرتبط بظروف خاصة"[1].

إنّ الذي يقف على رأس الدولة يجب أن يكون من الحكمة والذكاء، مما يجعله يقيم حسابا حاذقا لكل الأمور المحيطة به. فيأخذ بالاعتبار ما هم عليه الناس ويسلك وفق هذا السبل التي تمكنّه من المحافظة على نفسه ودولته، فلا يعقل أن يسلك سلوك أمراء كانت مدنهم وشعوبهم صالحة في حين أنّ الفساد عمّ شعبه ومملكته لأنّه حتما سيؤدي إلى خرابه بدل قوته. فعلى الأمير إذن إذا رغب في المجد أن يستعمل في مدينة فاسدة غير الوسائل التي يستخدمها في مدينة يتمتع مواطنوها بالفضيلة، لذلك فجميع الانجازات التي قام بها البابا جولII كانت عن طريق العنف وكانت هذه الطريقة في التصرف مطابقة تماما للظروف مما أدى إلى نتائج طيبة حتما لذا يقول **ماكيافللي** :"على المرء أن يهتم بالغ الاهتمام بالوقت الذي يعيشه وأن يكيف نفسه تبعا لهذا الوقت، ويكون الناس الذين فقدوا الاتصال بالوقت الذي يعيشون فيه إما بسبب سوء تقديرهم أو بدافع ميولهم الطبيعية تعساء في حياتهم غالبا وفاشلين في مشاريعهم، أمّا الآخرون الذين يتكيفون مع أوقاتهم فيختلف وضعهم تمام الاختلاف"[2].

ولذلك نقول إنّ العلاجات التي تفيد أحيانا قد تؤدي إلى كارثة أحايين أخرى إذ قد تنعدم الأسباب التي كانت فعّالة في المرة الأولى، لذلك قد تكون الأسباب واحدة لكنّ النتائج غير متماثلة كما قد تكون النتيجة واحدة والأسباب مختلفة،"فهانيبال"* اختلفت طرائقه عن طريق "شيبيو"** الإفريقي لكنه أو قع نفس الآثار في إيطاليا التي أوقعها هذا الأخير في إسبانيا لهذا يقول "ماكيافللي" :"إننا نرى أحيانا رجلان يتبعان السيرة ذاتها فينجح أحدهما

---

[1]) ميكيافللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 132.

[2]) ميكيافللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 634.

* هانيبال : Hannibal قائد قرطاجنة، (247، 183) ق.م، المطارحات، ص 95.

** شيبو: Shibu اسم يطلق على عائلة من نبلاء روما.

ويفشل الأخر، كما نجد العكس هذا حين نرى رجلين آخرين يسيران سيرة مختلفة جدا فيسير أحدهما بحذر شديد والآخر بعنف كبير، ومع ذلك يصلان بالتوازي إلى غايتهما وعليه فمن أين جاء كل هذا، لولم تكن طرق العمل مطابقة للزمن أو غير مطابقة له؟". هذا ما يؤدي حصول الأمر نفسه لعمليتين مختلفتين وإلى نتيجتين متناقضتين لعملين متماثلين"[1].

وعلى سبيل المثال إذا حكم أمير بحكمه وحذر واستعمل القوّة لمّا كانت الظروف الزمنية ملائمة فإن هذه الطريقة في الحكم جيدة ومن ثمّة فالنتيجة سوف تكون مرضية لكنّه إذا حافظ على النظام نفسه بينما الظروف الزمانية طرأ عليها التغيير فإنّه لا محالة سوف يسقط.

وينتقل **ماكيافللي** للحديث عن نقطة مهمة لا تقل عن سابقتها أهمية فيما تعلق بالحاجة إلى التاريخ وحوادثه من أجل علاج المشاكل المعاصرة. فمادامت طبيعة البشر واحدة وهم يولدون ويموتون على هذا النحو فمن غير المعقول أن لا يلتفت حكام اليوم إلى العلاجات التي طبقها الأقدمون في حكم رعاياهم وتسيير شؤونهم وفي علاقاتهم مع الممالك والجمهوريات الأخرى والتي ساهمت في تحقيق عظمتهم. يقول :"وعندما أرى بنفسي ما تلقاه صور الماضي من احترام وإجلال، وكيف يدفع الناس مثلا في قطعة من تمثال قديم ثمنا غاليا للحصول عليه وتشريف بيوتهم بوجوده فيها، وكيف يتبارى فنانو العصر والبارعون في الفن على نحت نماذج له ليعيدوا إخراجه في جميع أعمالهم الفنية وعندما ألاحظ من الناحية الأخرى أنّ ما يقوله التاريخ عن الأعمال المثلى والرفيعة التي قامت بها الممالك والجمهوريات القديمة وقام ملوكها وقادتها ومواطنوها ومشروعها وغيرهم من الذين أضنوا أنفسهم في خدمة بلادهم هي محط الإعجاب أكثر منها محط التقليد وأنهّا كثيرا ما يعرض عنها الجميع في كل ما يعملونه من صغائر فإني أحس فورا بالكثير من الدهشة والحزن"[2]. ودهشة **ماكيافللي** منصبة حول ملاحظته لرجوع الناس إلى الأقدمين في مواضيع الطب بينما

---

[1]) ماكيافبللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 155.

[2]) ماكيافيللي، المطارحات، مصدر سابق، ص208.

يغفلون في هذا الرجوع إلى الأساليب التي اتبعها الأقدمون في بناء الجمهوريات وتوسيعها وحكم الرعايا وإدارة الشؤون في الحرب وكأن إنسان البارحة ليس هو إنسان اليوم [1].

ويرجع **ماكيافللي** السبب في ذلك إلى عدم تقدير الناس لأهمية التاريخ الحقيقية وما يحمله من عبر لو استفاد منه أمراء اليوم لكفاهم شر ما يعيشونه حيث يقول: "لو أمعن الأمراء النظر في تاريخ هؤلاء الأباطرة لاتّخذوا منهم عبرة واضحة ولجعلهم يتعلمون التمييز بين الطرق المؤدية إلى الشهرة والطرق المؤدية إلى العار، وكذلك بين السبل المؤدية إلى الأمن وتلك التي تقود إلى الخوف"[2].

كما أنّ الهدف الحقيقي هو التهذيب والإقناع وما على الأمراء إلاّ أن ينكبوا على دراسته وأن يعتبروا بمشاهيره وعظمائه من خلال البحث في الأسباب التي أدت إلى عظمتهم فيعملوا على تقليدها ما أمكنهم ذلك ليتجنبوا الوقوع في الأخطار وليتمكنوا من المحافظة على دولهم، أمّا إذا جرّد التاريخ من كل إيضاح للأسباب والدوافع فإنه سيفقد الكثير من قيمته يقول **ماكيافللي:** "يجب على الأمير أن ينكب على قراءة التاريخ، وأن يعتبر بأعمال مشاهير الرجال ويستخلص عندئذ ما يجب أن يأخذ به وما يجب أن يتخلى عنه، عليه أن يقوم خاصة بما قام الرجال العظماء الذين اتخذوا من بعض الأبطال المشاهير القدامى مثلهم العليا ووضعوا أعمالهم وسلوكاتهم نصب أعينهم على الدوام وجعلوها قاعدة أساسية لهم"[3].

من خلال ما سبق يتضح أن **ماكيافللي** أكّد على ضرورة الرجوع إلى التاريخ للاستفادة منه ما دامت طبيعة البشر واحدة. لذلك نجده دائم الرجوع إلى الطرق والأساليب التي كان يسلكها القدماء ويقدم نتائجها إن كانت نافعة أو ضارة كما يضع تعميمات في حال ما إذا تكرر ذلك الحادث وأدى إلى نفس النتائج ويقدمها على شكل قواعد للحكام لكي يحتذوها أو يتجنبوها، فإذا وجد حادثة تناقض تلك القاعدة فإنه يبحث في أصلها إذا كانت

---

[1]) المصدر نفسه، ص 209.

[2]) المصدر نفسه، ص 256.

[3]) ماكيافللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، 91.

قائمة حقيقة أم أنّها وهم ظاهري وإن وجد حوادث معينة أدّت إلى نتائج مختلفة فإنه يفحص كلا منها ليبين متى يكون أثرها نافعا ومتى يكون ضارا وفقا للظروف المحيطة بها، ويبدوا أن هذه الطريقة تبدو جديدة كل الجدة فلم نجد قبله من سلك هذا الطريق إذ اعتمد مشروعا يميل إلى تشخيص المواقف ثم تقديم العلاجات فانطلاقا من اعتقاد **ماكيافللي** أن الطبيعة البشرية تخضع لقوانين واحدة حاول أن يؤسس القواعد الأساسية لعلم السياسة ولو لم يعتبر الطبيعة البشرية واحدة لما تمكن من ذلك . لكن هذا لا يعني أن قوله بأنها واحدة مجرد فرض بل نجده في مؤلفاته يقيم الدليل على صحة ما ذهب إليه . لأنّ العلم كي يتأسس يجب أن يقوم على مبادئ مستقرة [1].

يمكن أن يكون أرسطو(**Aristote**، ت.322 ق.م) قد اشتغل على شيء من هذا من خلال مخالفته لمعلمه أفلاطون (**Platon** ت.384 ق.م) ورفضه تقسيم العالم إلى قسمين (عالم المحسوسات، عالم المعقولات) هذا الأخير الذي يعتبر هو العالم الحقيقي بينما الأول هو مجرد ظل لعالم الحقيقة الخالد، حيث سلك طريقا آخر ذو بعد واقعي من خلال اعتماده على طريقة بحث جديدة تعتمد على الانطلاق من الواقع من خلال تحديد موضوع البحث كخطوة أو لي يليها السرد وجمع الآراء حول الموضوع المراد دراسته وتمحيصها واستخلاص ما يبدو صائبا وترك الباقي وذلك من خلال وضع الآراء المختلفة والمتعارضة وتغليب أحدهما على الآخر بالحجة والبرهان للوصول إلى الحلول. وهذا عينه ما فعله في تحليله لشكل الحكومة الأمثل، فيجد أنه الشكل الذي يجمع بين العناصر الصالحة في كل من الديمقراطية والأوليغارشية دون تطرف في أي منهما. حيث أطلق عليه تسمية الحكومة البوليتية أو الدستورية، ولا يتوفر هذا الشكل إلاّ عندما تكون هناك طبقة متوسطة تتألف من متوسطي الحال [2].

---

[1]) ماكس هوركهايمر، **بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية**، تر. محمد على اليوسفي، (بيروت: دار التنوير للطباعة 2006)، ص 12.13.

[2]) فاروق سعد، مرجع سابق، ص 226.

إلا أن بينه وبين ماكيافيللي اختلافا كبيرا وهذا ما ورد في كتاب "المطارحات "المترجمة" خيري حماد" من خلال قوله :"من المحتمل أن يكون كتاب "السياسة" لأرسطو منطويا على عدد مماثل إن لم يكن متفوقا على عدد القواعد التي يضمها الكتاب (المطارحات) ولكن أرسطو لا يلجأ إلاّ نادرا للاستشهاد بمثل تاريخي ليظهر أنّ هذه المفاهيم والقواعد يمكن تطبيقها عمليّا بينما يستشهد **ماكيافللي** بالأمثلة العديدة ولا يكتفي أن تكون قواعده مطابقة للعقل فحسب بل بالتجربة أيضا من ماضيه وحاضره ليقنع قرائه سلامة النصيحة التي يقدمها"[1].

[1]) ميكيافللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص109.

3-الغاية والواسطة:

لا شكّ أن **ماكيافللي** وجّه الدراسات السياسية وجهة جديدة وقد ذكرنا فيما سبق كيف ثار على الفلاسفة الكلاسيكيين فلم يهتم بالتنظير لدولة مثالية تبحث عن سبل تحقيق السعادة وإنّما طرح أفكاره كرجل سياسة مارسها لما يربوا عن الأربعة عشر سنة في فلورنسا ولما لهذه السنوات الطوال من أثر على أفكاره، فقد عايش الطريقة التي يتصرف بها الناس في علاقاتهم مع حاكمهم، وبما أنّ الطبيعة البشرية فاسدة فإنه لم يهتم كما فعل القدماء بالبحث عن النظام الذي يحقق غاية أخلاقية مثل (العدالة، السعادة)، بل على العكس من هذا قلّما نجده يقيم أي اعتبار للأخلاق إذا تعلق الأمر بالسياسة.

ذكر أرسطو في كتابه "الأخلاق" أنّ بعض الأعمال والمشاعر التي يأتيها الأفراد تحمل معان السوء كالازدراء والحسد والسرقة والقتل وأن هذا السوء لا يتعلق بالإغراق أو الإكثار منها بل على الفرد أن يتجنبها لأنها باطلة من أساسها، وأخلاق الكنسية المسيحية لا تختلف عما ذهب إليه أرسطو إلاّ أنّ **ماكيافللي** يرفض هذا المبدأ رفضا مطلقا وينفي أن ينطبق على ميدان السياسة [1]. لأنّ في ميدان السياسة الغاية تبرر الواسطة وهذا عبر عنه في كتابه الأمير حيث يقول :"في أعمال الناس جميعا ولا سيما الأمراء وهي حقيقة لا استثناء فيها تبرر الغاية الواسطة"[2].

ويسيطر هذا المبدأ على جميع كتابات **ماكيافللي** سواء في حديثه عن علاقة الحاكم برعيته أو في علاقاته مع الأمراء الآخرين مادام الناس لا يتصرفون إلا بدافع من الهوى والأنانية وكانت غاية الأمير الحفاظ على دولته فإنّ جميع الوسائل متاحة أمامه لتحقيقها يقول :"ومن الواجب أن نلاحظ حينئذ أن الكراهية هي ثمرة من ثمار الأفعال الحسنة بقدر ما هي ثمرة من ثمار الأفعال السيئة وينجر عن ذلك كما قلت أنّ الأمير الذي يريد أن يثبّت

---

[1]) المصدر نفسه، ص 144.

[2]) ماكيافيللي، **الأمير**: تر. خيرى حماد، تقديم، كريستيان قاوس، تعقيب فاروق سعد (ط.23، بيروت :منشورات دار الآفاق الجديدة،1991)، ص151.

نفسه في الحكم مضطر لمخالفة الطيبة بسبب أن طبقة الرعايا التي يعتقد أنّه بحاجة إليها إذا كانت فاسدة سواء كانت شعبا أم جنودا أم كبارا وكان لابد من إرضائها مهما كلفت من ثمن حتى لا تنقلب عليه، فإنّ الأفعال الحسنة معها حينئذ ضارة بدلا من أن تصبح خادمة له"[1]. فلا ينبغي أن يغفل عن هذه القاعدة أثناء حكمه مادامت هي وسيلته للحفاظ على نفسه وعلى دولته وأنّ الناس سيثنون عليه دائما حيث يقول :"وفوق ذلك فإنّ ما يأخذ بالاعتبار من أفعال الرجال وخاصّة الأمراء التي لا يمكن أن تفحص أمام محكمة إنّما هو نتيجة تلك الأفعال. فعلى الأمير إذن أن يفكر في المحافظة على حياته وعلى دولته. فإذا ما نجح في ذلك فإن كل الوسائل التي يستعملها ينظر إليها على أنّها شريفة وتكون محل مدح من جميع الناس"[2].

ولتأكيد تبرير هذه القاعدة يقدم **ماكيافللي** الأدّلة التي تثبت نجاعتها من التاريخ الروماني القديم ويضرب مثالا بما فعله البابا اسكندر السادس حيث أنه لم يقم بأي عمل سوى خداع الآخرين، ولطالما وجد الفرصة في ذلك ولطالما نجح في ذلك ولم يفكر قط أنه يقوم بعمل يبدو مشينا لأنه تيقن من أنها الطريقة الصحيحة في معالجة الأمور، كما أنّه كان لا يتوانى عن تقديم العهود داعما إيّاها بالأيمان المغلظة في حين لم يكن يتمسك بها لأنها كانت لتؤدي إلى خرابه [3].

لكن ألا تؤدي أعمال العنف هذه إلى وقوع عدة اضطرابات مما من شأنها أن تخلق حالة من الفوضى مادام الأفراد قصيري النظر ويحكمون على الأفعال من ظاهرها فقط. ألا يؤدي هذا إلى انقلاب على الحاكم من طرف الجماهير؟ والإجابة أن كثيرا من الناس سيقعون في الأخطاء عندما لا يدققون النظر في النتائج التي تقع، لكن هذا التوهم سوف يزول إذا كان القائم على الحكم رجل يتمتع بالذكاء والكفاءة فيبسط الحقيقة أمامهم.

---

[1]) ماكيافللي، الأمير، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص.120.119.

[2]) المصدر نفسه، ص 110.

[3]) المصدر نفسه، ص 107.

فالحاكم الصالح هو من يستعمل بعض الوسائل التي يراها لازمة، غير آبه بها إن كانت أخلاقية أم غير أخلاقية، مادام هدفه هو تأسيس وبناء دولة وليس السيطرة واستعباد الناس لأن الغاية في الأخير خدمة مصالح الدولة.

ولمّا كانت طبيعة البشر واحدة في كل زمان ومكان فإن الأساليب التي يتبعها الحاكم في حكم رعيته هي عينها ما يتوجب عليه إتباعها في سياسته الخارجية وفي علاقاته مع الأمراء الآخرين. ولما كان هدفه الحفاظ على دولته فإن **ماكيافللي** يبين الطريق لكل أمير يرغب في ذلك أن يخضع للقانون المزدوج وهو "البقاء والمنافسة الحيوية"، حيث يقول: "إنّ على كل دولة أن تخضع للقواعد القاسية التي يفرضها هذا القانون المزدوج (البقاء والمنافسة الحيوية)، وإلا فإنها ستزول من الوجود بصورة جذرية... فالرومان قد عرفوا كيف يجدون يفضل عبقرتيهم السياسية وحدها الصيغة الصحيحة للنجاح الخارجي، والتي تمزج فيها القوة والحيلة بكميات متناسبة"[1].

وإذا تمكن الأمير من تحقيق الاستقرار داخل دولته وخارجها من خلال إتباع سياسة حكيمة فلا أحد يمكن أن يلقي عليه باللّوم لأنّه اتبع أساليب القسوة، العنف، الغدر، الحيلة بل على العكس من ذلك فإن الثناء سيناله لا محالة، وهذا ما ذكره **جان توشار** في كتابه تاريخ الأفكار السياسة من خلال قوله :"إذا نجح الأمير في أن يحفظ حياته وأن يصون دولته فان جميع الوسائل يحكم عليها أنها مشرفة"[2]. وفي نص آخر يقول **ماكيافللي** على حد تعبير بطرس بطرس غالي :"إنّ الوسائل ستتغير وهي دائما مشرفة وسيمتدحها كل واحد لأنّ

---

[1]) جون جاك شوفالييه، **تاريخ الفكر السياسي**، تر. محمد عرب صاصيلا (ط 1، بيروت : المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، 1987)، ص، 244.

[2]) جون توشار و آخرون، **تاريخ الأفكار السياسية**. تر. علي مقدم (ط 2، بيروت : الدار العلمية للنسر و التوزيع 1983)، ص.354.

الشخص العامي لا يحكم إلاّ على ما يري ويجري ولا يوجد في هذا العالم إلاّ العاميون وأنّ الأقلية لا تحسب"[1].

وذلك لأنّ فن السياسة حسب **ماكيافللي** يعمل بعيدا عن الضغوط التي تمارسها الأخلاق ويمارسها الدين. ويخضع لمبدأ الضرورة الذي يبيح بعض الوسائل التي قد تتنافى مع الأخلاق العادية، وأي حديث عن الأخلاق في زمن عم فيه الفساد مثل زمن **ماكيافللي**، فها هي إيطاليا مقسمة ومتصارعة ومتناحرة والدول المجاورة تنهش جسمه، أليس حريّا أن نهتم بوحدة الوطن وقوته قبل كل شيء أليس الوطن هو غاية الغايات؟ هذا ما كان **ماكيافللي** يريده وحدة الوطن وقوته قبل كل شيء وهو ما عكف على تبيانه من خلال توضيح الوسائل التي تحقق ذلك فإذا تحققت الغاية فالوسائل دائما محمودة ليمضي **ماكيافللي** ويقول :"إنّ الكثيرين يعتقدون أنّها لبادرة سيئة أن يقوم مؤسس دولة كروملوس بقتل أخيه أو لا وأن يرضى بموت "تيتوس تايتوس السباييني" الذي سبق له أن اختاره ليكون زميلا له في إدارة مملكته. وقد يقول هؤلاء إننّا إذا وجدنا المبرر لهذه الأعمال فإن المواطنين الطموحين التواقين للحكم قد يحذون حذو أميرهم ويستخدمون العنف ضد أولئك الذين قد يعارضون سلطتهم، ومثل هذا الرأي قد يكون سليما إذا تجاهلنا الغاية التي كان "روملوس" يعمل في سبيلها عندما اقترف أعمال القتل هذه، ألم تكن غايته أن يغدو المشرع الوحيد ليتمكن من ضبط الأمور، ألا يحق لنا إذن أن نغفر له موت أخيه وزميله [2].

لقد عاصر **ماكيافللي** كل أنواع الفساد الذي انتشر واستفحل في إيطاليا من حكام ومحكومين حيث كانت الأوضاع السياسية التي عايشها السبب فيما كتب. فها هي إيطاليا مقسمة إلى خمس إمارات متصارعة ومتناحرة فيما بينها مما أدى إلى إضعافها واتجاه العديد من الأطماع من الدول المجاورة لها. وهذا ما دفعه إلى كتابة مؤلف "الأمير" ليقدم فيه

---

[1]) بطرس بطرس غالي، محمد خيري، **المدخل في علم السياسة**، (ط 5، القاهرة : مكتبة الأنجلو مصرية، 1976) ص85.

[2]) ميكيافللي، **المطارحات**، مصدر سابق، 251.

النصائح للحكام والأمراء عن الطريقة الأنسب للحفاظ على دولهم ورجاؤه في ذلك كبير أن يظهر مخلص في إيطاليا ليعيد لها وحدتها وعظمتها التي فقدتها، حاكم يتمتع بالكفاية والشجاعة التي تمكنه من تحقيق ذلك.

ولما كانت غايته إعادة الروح لإيطاليا فإنه ينصح الحاكم بإتباع جميع الوسائل من أجل مصلحة الوطن التي تتضاءل معها أي مصلحة أخرى فالدولة أو لا وأخيرا، ولا أهمية للأخلاق ولا لا للدين ولا للأغراض الخاصة أو الحقوق الفردية وذلك بالنسبة لضرورات الدولة ومستلزماتها. ولا يجب أن يُحسب أي حساب للأخلاق إذا ما تعرض الوطن للخطر سوآءا كان داخليا أو خارجيا بحيث يؤدي إلى تهديد أمنه وسلامته [1].

لذلك **ماكيافللي** لا يبرر حكم الطغاة الذي يكون فيه هدفهم مصالحهم الذاتية وكيف يبرر للطغيان وقد عانى من ويلاته أشد المعاناة واحترق بناره أيّما احتراق ودفعه لكتابة ما كتب فاللّوم إذا لا يقع على عاتق **ماكيافللي** وإنما يقع على الذين اتخذوا من أفكاره ذريعة للتسلط والطغيان وما ألحقوا به من تشويه.

ولا ينبغي الاعتقاد أبدا أن **ماكيافللي** يفصل بين الأخلاق والسياسة بل كل ما في الأمر أن الأخلاق تصبح أداة في يد السياسي يستعملها أو لا يستعملها وفق الحالات التي تواجهه. وهذا لأن هناك قانون آخر يفرض على الحاكم إتباعه فبين الأخلاق والسياسة توجد الضرورة وهذه الأخيرة هي التي تملي على الحاكم الطريق الذي يجب عليه إتباعه وفوق الضرورة توجد المصلحة العامة التي هي فوق الجميع. فالضرورة لا تعمل جنبا مع جنب مع المصالح الشخصية بل تخضع لمصلحة الدولة.

تقوم السياسة عند **ماكيافيللي** إذن على أساس شهير فحواه أن الغاية تبرر الوسيلة والغاية التي يتحدث عنها **ماكيافيللي** هي أساسا مصلحة الوطن، ذلك أن الوطن هو المركز الذي تدور حوله الأخلاق **الماكيافيللية**، وهو الحدود الذي يضعها **ماكيافيللي** لهاته الأخلاق

---

[1]) إمام عبد الفتاح إمام، **الأخلاق و السياسة**، (د. ط، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 2002)، ص.259.

ومن هنا فان المرء الذي يعمل من أجل غاية لا تمت للوطن بصلة هو شخص لا أخلاق له ذلك أن الدولة أعلى من الفرد أو أي جماعة بشرية، لذلك كان لزاما أن ينظر إلى الدولة على أنها فوق كل الالتزامات الفردية [1].

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن للدولة منطقا خاصا يختلف عن المنطق الذي يعيش وفقه الأفراد، ذلك أن الدولة تعمل على خدمة المجموع مما يحتم عليها في سبيل تحقيق غايتها سلوك بعض الطرق التي قد لا تتفق مع مبادئ الأخلاق العادية في سبيل الحفاظ على المصلحة العامة. وهكذا يمكن القول "أن واجب الدولة أن لا تتقيد ساعة الضرورة بأي نوع من الأخلاق الفردية في سبيل حراسة سلامة الجماعة، لأن أعمال الدولة لا تدخل في حيز الأخلاق، وليست لها طبيعة الخير أو الشر ولا تنسب لأي منهما"[2]

غير أن ما ينبغي الإشارة إليه أن **ماكيافيللي** لا يدعو الفرد إلى التحلل من القيم والمبادئ الخلقية أو الخروج عن مبادئ الفضيلة بل على العكس من ذلك فقد كان مهتما بغرس المبادئ الأخلاقية عند الفرد، وإنما كلامه كان موجها لصاحب السلطة والقائم على شؤون الدولة.

---

[1]) المرجع نفسه، ص 258.259

[2]) المرجع نفسه، ص260.

خلاصة :

تعد إذن هذه هي أهم الأسس المنطلقات التي اعتمدها **ماكيافيللي** أثناء طرحه لنظريته السياسية حيث قدم وصفا وتحليلا للطبيعة البشرية، اعتبر فيه أن السمة الأساسية البارزة في الإنسان هي الأنانية، فهولا يتصرف إلا بدافع من الهوى وما يخدم مصالحه. ولقد عمم ماكيافيللي هذا الحكم ليطلقه على جميع الناس، فهو لم يقصد أبناء وطنه ايطاليا فقط بل ذهب إلى القول أن الأفراد تصرفوا ويتصرفون على النحو ذاته في جميع الأوقات والأزمنة وما تعميم **ماكيافيللي** لهذا الحكم والوصف الذي يخص به ماهية الطبيعة البشرية إلا لغاية منه وهي محاولة منه لجعل السياسة علما، لأن العلم كي يتأسس لابد من أن يقوم على أسس ثابتة. إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه أن **ماكيافيللي** لم يجعل من هذا التعميم مجرد فرض بل قدم العديد من الأدلة التي تثبت ذلك وهو ما وضحناه فيما سبق.

ومن النتيجة التي انتهي إليها ماكيافيللي بخصوص وحدة الطبيعة البشرية، حاول **ماكيافيللي** أن يلفت انتباه الحكام والساسة إلى حقيقة أساسية مفادها أهمية وضرورة دراسة التاريخ وهذا بوصفه مخزونا من الحوادث إذا تمكنا من استكناه مضمونه الحقيقي فلا ريب أن نستفيد منه الكثير من الدروس المتعلقة بالعلاجات التي طبقها الأقدمون والتي ثبتت نجاعتها من أجل تطبيقها على الحالات الراهنة.

إن **ماكيافيللي** وهو يقدم هذا التحليل يبغي الوصول إلى نقطة أساسية متمثلة في محاولة إعادة الروح لوطنه ايطاليا التي أثقلتها الفتن والصراعات من خلال محاولته تقديم منهجية وطريقة محكمة إذا ما نجح الحكام والساسة إجادتها فلا ريب أن يتمكنوا من إيجاد الدواء للمعضلات التي أمست تفتك بالوطن الأم.

الفصل الثاني

طبيعة الفضيلة عند ماكيافيللي

مدخل:

لقد عاصر **ماكيافيللي** فترة من أسوأ الفترات التي مرت بها ايطاليا، حيث عم فيها الفساد على جميع المستويات سياسيا، اجتماعيا، اقتصاديا، إلى جانب انقسامها إلى عدة دويلات صغيرة متصارعة ومتناحرة فيما بينها، الأمر الذي أدي إلى إضعافها مما جعلها محل أطماع من الدول المجاور التي تفوقها قوة وتنظيما.

هذا الواقع المزري الذي آلت إليه ايطاليا كان له الوقع الكبير في نفسية **ماكيافيللي** مما دفعه إلى تجنيد قلمه في سبيل محاولته إيجاد مخرج يعيد لوطنه ايطاليا مجدها وعظمتها المفقودة التي ورثتها عن الإمبراطورية الرومانية قديما، ولأجل ذلك عمد إلى تحليل الواقع السياسي والاجتماعي الذي عايشه تحليلا معمقا محاولا بذلك الكشف عن الأسباب الحقيقية التي أحالت ايطاليا إلى ما هي عليه من ضعف وهوان. ومن خلال تحليله ذلك خلص إلى نتيجة أساسية وجد فيها أن السبب الرئيسي الذي وقف أمام ايطاليا حائلا دون أن تكون مثل جاراتها من الدول الأخرى مثل اسبانيا وفرنسا هو غياب عامل الفضيلة عن أفراد الشعب الايطالي حكاما ومحكومين. لذلك نجده في مؤلفاته يقدم الحجة تلوى الحجة ويدعمها بالأمثلة الكثيرة المستقاة من التاريخ القديم والمعاصر ليثبت أنه ودون عامل الفضيلة فان ما تتعرض له الدول هو الانهيار والضياع.

من خلال ما سبق يتضح أن **ماكيافيللي** يولي أهمية كبيرة لعامل الفضيلة إذ عن طريقها تقوم الدول أو لا تقوم. لكن قبل الحديث عن أهمية ودور الفضيلة في تأسيس الدول والحفاظ عليها كان لزاما علينا أن نتطرق بالتحليل والنقاش لمفهوم وطبيعة الفضيلة بغية تحديد المعني الذي أو رده **ماكيافيللي** للدلالة على مصطلح الفضيلة وهذا من خلال البحث في مفهوم الفضيلة عند الفلاسفة القدماء وطريقة بحثهم فيها ومقارنته بما أو رده **ماكيافيللي** لتأسيس الفرق بين الدراستين ونحن نقول هذا الكلام لأن **ماكيافيللي** عندما يتحدث عن الفضيلة فهو يذكرها في إطار بحثه السياسي لا كما أتي على ذكرها الفلاسفة القدماء. كما سنحاول الإجابة على بعض التساؤلات فيما يخص نضرة **ماكيافيللي** للفضيلة وهذا إذا ما

كانت واحدة أو متعددة ؟ ثم هل هي نسبية أم مطلقة ؟ كما سنحاول ربطها بما سبق لنا ذكره من الأسس التي اعتمدها **ماكيافيللي** أثناء بحثه في السياسة. كل هذه التساؤلات وأخري ستكون مدار بحثنا في هذا الفصل. وهذا من خلال التطرق لمفهوم الفضيلة عند الفلاسفة القدماء وكذلك **ماكيافيللي،** كما سنحاول توضيح معنى الفضيلة عند **ماكيافيللي** أكثر من خلال ربطه بمبدأ الضرورة لننتهي إلى الحديث عن الفضيلة بالمعني الذي ذكره **ماكيافيللي** إذا ارتبط بالواقع والممارسة.

1-مفهوم الفضيلة:

تكتسي الفضيلة (vertu) مكانه هامة عند **ماكيافيللي** ويتضح ذلك من خلال تكرار ورودها في نصوصه لاسيما منها كتاب "الأمير" و"المطارحات"، إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه أن **ماكيافيللي** لم يكون الوحيد الذي تطرق إلى هذه الإشكالية فلقد تناولها من قبله العديد من المفكرين والفلاسفة وهذا من خلال التطرق إلى مفهومها وخصائصها وشروط تحققها وبتعدد الدراسات تعددت وجهات النظر.

والفضيلة في **اللغة** كما وردت عند ابن منظور هي "الزيادة على الحاجة أو الإحسان ابتداءا بلا علة أو ما بقي من الشيء، كما تفيد معنى الدرجة الرفيعة. وفضيلة الشيء تعني مزيته أو وظيفته التي قصدت منه الدرجة الرفيعة في الفضل أو كماله الخاص به".[1]

أما **اصطلاحا** فقد وردت في المعجم الفلسفي لجميل صليبا بأنها الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الأخلاقي، أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها. فالغاية القصوى للفعل الأخلاقي هي اكتساب الفضيلة على أنها طريق لنيل صفات الحكمة والسعادة والعفة والعدل"[2]

أما لالاند فقد عرفها بأنها "الاستعداد الراسخ لإنجاز نوع معين من الأفعال الأخلاقية أو الاستعداد الراسخ لإرادة الخير".[3]

وتندرج الفضيلة عموما ضمن إطار المشكلة الأخلاقية حيث أن هذه الأخيرة تهتم بدراسة السلوك الإنساني وتحاول تقديم أحكام قيمية حوله وهذا من خلال مفهومي الخير

---

[1]) ابن منضور، **لسان العرب**، جزء 11، (د. ط، القاهرة : دار المعارف)، ص 127.

[2]) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، (د. ط، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982)، ص148.

[3]) اندريه لالاند، **الموسوعة الفلسفية**، تعريب، خليل أحمد خليل، (ط.2، بيروت : منشورات عويدات، 2001)، ص 1534.

والشر وهذه الأحكام القيمية التي تحدد معنى الخير والشر هي التي تشكل محور البحث في الفضيلة.

وتاريخيا يمكن القول أن الفضيلة كموضوع للبحث تعود في بداياتها الأولى إلى الفلاسفة اليونان. وهذا مع ظهور الحركة السوفسطائية التي جعلت من الإنسان موضوعا للبحث على غير ما كان سائدا من قبل حيث اهتم الفلاسفة الطبيعيون بقضايا الكون والوجود الطبيعي. ولقد كان للسوفسطائيين بعض الآراء حول مشكلة الفضيلة وهذه الآراء لم تخرج عن دائرة القاعدة التي امن بها السوفسطائيون والتي تقول "الإنسان معيار كل شيء" أي أن الأشياء في الحقيقة كما تبدو بالنسبة لي، وحقيقتها بالنسبة لك كما تبدو لك[1]. حيث خلصوا من خلال رأيهم هذا انه وفي مجال الأخلاق لا يمكن القول بأن هذا خيرا أو أن هذا شرا بصفة مطلقة، ذلك لأن أثر أي شيء يختلف تبعا للفرد المتأثر به[2]، وبناءا على هذا لم تعد الفضيلة حسب السوفسطائيين ثابتة لذلك نجدهم يرفضون تحديد الفضيلة في إطار تعريف عام وفصله عن الأمثلة الفردية التي تجسده ليخلصوا في الأخير إلى نتيجة أساسية فحواها إمكانية تعليم الفضيلة[3].

هذه الآراء التي انتهى إليها السوفسطائيون لقيت رفضا من معاصرهم "سقراط **(Socrate–ت.400 ق.م)**.حيث رأى أن السوفسطائيين وإن أولو عنايتهم بالإنسان لا بالكون الطبيعي إلا أنهم لم يولوا عنايتهم ببيان الخير الأقصى والغاية النهائية للحياة وإنما وقفوا عند حد طلب المكاسب العملية والنجاح الوقتي. فالسوفسطائيون حسبه لم يؤسسوا الأخلاق على علم أو معرفة ولم يتبعوا المنهج السليم في الأخلاق حيث استخدموا مناهج لا

---

[1]) أبوبكر إبراهيم التلوع، **الأسس النظرية للفكر الأخلاقي** (د. ط، بنغازى : دار الكتب الوطنية، 1995)، ص 34.

[2]) المرجع نفسه، ص 35.

[3]) المرجع نفسه، ص 40.

تتعمق في معرفة النفس الإنسانية. لهذا طالب سقراط بأن يكون للأخلاق علم يبين حقيقة الفضيلة وبهذا أصبح العلم وسيلة لتحقيق الفضيلة وتطهير النفس[1].

لقد اهتم سقراط بالنفس أكثر من غيره من المفكرين وهذا الاهتمام ناتج عن قيمة وأهمية النفس في فلسفته، فهي التي تجعل الفرد خيرا أو شريرا من حيث أن للنفس وظيفة خاصة بها متمثلة في إدارة وقيادة العناصر الأخرى في الإنسان حتى يحيا حياة فاضلة فمعرفة النفس عند سقراط هي معرفة الخير وتحقيق للفضيلة ذلك أن من يعرف نفسه يعرف بالتالي ما يناسبها وما لا يناسبها أي يعرف الخير الخاص بها، ولما كانت الغاية القصوى التي يسعي إليها الإنسان في كل حياته هي السعادة فعلي الحكيم أن يسعي إليها بالعقل والتخطيط السليم. والسعادة التي يتحدث عنها سقراط هي تحقيق النفس لطهارتها لذلك فقد ترتب عن على مبدأ "اعرف نفسك بنفسك" عند سقراط نظريته الأخلاقية التي تتلخص في أن "الفضيلة معرفة والرذيلة جهل "فمعرفة الإنسان نفسه بنفسه هي السبيل الوحيد لتحقيق الفضيلة[2]. وكمال الفضيلة حسب سقراط مشروط بتقدم المعرفة وفوق ذلك معرفة النفس وهذه هي حكمة "اعرف نفسك بنفسك". وعلى الرغم من قول سقراط أن الفضيلة تحتاج إلى علم إلا أنه تصور أن هذا العلم ليس مما يمكن تعليمه، بل هو مفطور في النفس فيختلف هنا مع السوفسطائيين وخاصة بروتاغوراس(490.420 ق.م) الذي رأى أن الفضيلة ليست بعلم ولكنها مكتسبة ويمكن تعليمها للغير[3]. كما اختلف سقراط في نقطة أخري مع السوفسطائيين مترتبة على النقطة السابقة ففي الوقت الذي يذهب السوفسطائيون وخاصة بروتاغوراس للنظر إلى الفضائل المختلفة باعتبارها متعددة رأي سقراط أن الفضيلة واحدة

---

[1]) أميرة حلمي مطر، **الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها**، (د. ط، القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع 1997)، ص 151.

[2]) أبوبكر إبراهيم التلوع، مرجع سابق، ص 48.

[3]) أميرة حلمي مطر، مرجع سابق، ص151

ولكن تتعدد صورها إنها تتلخص عنده في شيء واحد هو دائما إدراك الخير ومعرفة أين يكون[1].

هكذا يمكن القول أن النظرة العامة لمفهوم الفضيلة لم تظهر إلا عند سقراط حيث أكد على المعني الأخلاقي للفضيلة إلى جانب محاولته الوصول إلى تبرير فلسفي عن طريق اشتراط التعريف الكلي حيث رفض كل الأمثلة الخاصة تعريفا للفضيلة[2].

بعد أن وضع سقراط دعائم نظرية الفضيلة بدأت أبحاث المفكرين والفلاسفة تتسع أكثر فأكثر لتصبح نظرية متكاملة، وهذا ما تجلى في النظرية الأخلاقية التي طرحها كل من أفلاطون وأرسطو. ولقد كان أفلاطون أحد تلامذة سقراط البارزين وكان معجبا بأستاذه إلى حد كبير وهذا ما جعله يسير في نفس الاتجاه الفلسفي الذي رسمه وبدأه سقراط حيث حاول أفلاطون أن يطور تلك المبادئ السقراطية ويضعها في قوالب ونظريات أصبحت من بعد تشكل مذهبا فلسفيا متميزا فمبدأ الفضيلة معرفة والرذيلة جهل عند سقراط مثلا أصبح من الأفكار الرئيسية في مذهب أفلاطون الأخلاقي.

من أجل معالجة مشكلة الفضيلة اتجه أفلاطون وسار على منواله أرسطو إلي محاولة فهم الطبيعة البشرية من حيث خصائصها ومكوناتها، ذلك أن الفضيلة من منظورهم صفة خاصة بالإنسان وبالتالي لابد من البحث في طبيعته من أجل تحديد الفضيلة الخاصة به. ويتضح ذلك من خلال تقسيم الأول النفس البشرية إلى ثلاث قوى لكل واحدة منها فضيلتها الخاصة بها التي تقابلها (القوة الشهوانية وفضيلتها العفة، القوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة، القوة العاقلة وفضيلتها الحكمة) وانطلاقا من هذا التقسيم رأى أفلاطون أن الفضيلة لا تتحقق إلا إذا خضعت القوة الغضبية والشهوانية للقوة العاقلة ومن توفر هذه الفضائل وانتظام علاقتها ببعض تتحقق العدالة التي هي أسمي الفضائل. وبهذا يكون

---

[1]) المرجع نفسه، ص 152

[2]) أبوبكر إبراهيم التلوع، مرجع سابق، ص 41

أفلاطون قد ربط الفضيلة بالعلم والخير والعمل بهما[1]. أما فيما يخص أرسطو فقد أقر أن لكل مخلوق طبيعته الخاصة التي تميزه عن الآخرين، وبناءا على ذلك فالإنسان لا يمكن أن يكون فاضلا إلا إذا كانت تصرفاته مطابقة لطبيعته العاقلة ومنه "تطلق الفضيلة على جميع الأفعال الحائزة على الكمال فالفعل الإنساني أيا كان عندما يتم على نحو كامل فهو فعل فاضل، وهذا الكمال متعلق أساسا بقدرة الإنسان على القيام به على أكمل وجه"[2].

ولقد قسم أرسطو الفضائل إلى قسمين حسب تكوين الطبيعة البشرية التي هي جانبين مادي غير عاقل وجانب عاقل ومنها استخلص أن هناك فضائل أخلاقية تشمل الشجاعة والاعتدال والطبع الجيد والسخاء والعدالة وفضائل عقلية تشمل الحكمة والتدبير والتأمل العقلي، والفضائل الأخلاقية حسب أرسطو ليست طبيعية أو فطرية في الإنسان بل تكتسب عن طريق التعلم والتدرب.[3]

ولما كانت الفضيلة حسب ارسطو متمثلة في خضوع الشهوات لحكم العقل فإن هناك طرفان ينبغي تجنبهما، الطرف الأول هو محاولة استئصال الشهوات وإزالتها والطرف الثاني هو إرخاء العنان لها. وبذلك تصبح الفضيلة عند ارسطو هي الاعتدال، ومن خلال هذا التحليل انتهي ارسطو من بحثه في الفضيلة إلى نتيجة أساسية متمثلة في قاعدته الشهيرة "نظرية الأوساط"، وطبقا لهذا المبدأ تصبح الفضيلة عند ارسطو هي وسط بين رذيلتين فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين الشرف والبخل، والعفة وسط بين الفجور والخمود.[4]

وإذا انتقلنا إلى العصر الهيلستيني نجد أن ظروف بلاد اليونان وأثينا بصفة خاصة قد تغيرت واختلفت من الناحية السياسية والثقافية، نظرا لما أصاب هذه البلاد من الانفتاح

---

[1]) أبوبكر إبراهيم التلوع، مرجع سابق، ص 57.

[2]) محمود حمدى زقزوق، **مقدمة في علم الأخلاق**، (ط.3، الكويت: دار القلم، 1963)، ص 145.

[3]) أبوبكر إبراهيم التلوع، مرجع سابق، ص 78.

[4]) احمد أمين، كتاب الاخلاق، (د. ط، القاهرة : كلمات عربية للنشر والتوزيع)، ص77.

والانفراج حيث تقاسم اليونان تراثهم الحضاري مع الشرق والغرب. وفي هذه الفترة شغلت الفلسفة نفسها بالبحث عن المبادئ العامة التي يمكن أن توجه السلوك البشري نحو الخير والسعادة في ظل الأوضاع المضطربة تاركا كل القضايا الأخرى. ولقد اتسم هذا العصر بانتشار الزهد والانسحاب من الحياة الاجتماعية والسياسية وفقدان الثقة في كل الأنظمة والحكومات والعودة إلى الذات ومحتوياتها[1]. وهذا ما يتضح جليا من خلال مدرستي الرواقية والأبيقورية، حيث احتلت الأخلاق في المذهب الرواقي أهمية كبيرة لم يضفر بها أي بحث من البحوث الأخرى بل تحولت الرواقية في العصر الروماني إلى مذهب في الأخلاق فأبيكيتوس (**Abecitus** 135.55م) كان يري أن المنطق والطبيعة لا أهمية لهما إلا بقدر ما يوضحان الأخلاق، وقد اتسعت أبحاث الرواقيين في الأخلاق للبحث في الغرائز والانفعالات والفضيلة والواجب والخير[2].

ولقد ارتكز الرواقيون أثناء بحثهم في الفضيلة إلى فكرة أرسطو القائلة أن الصفة التي تميز الإنسان هي العقل وبذلك أقروا أن الحياة الطبيعية هي التي تكون وفق العقل وهذا ما تجسد في المقولة التي تبنتها المدرسة الرواقية "عش في وفاق مع الطبيعة"، وهكذا تكون الحياة الفاضلة بالنسبة للإنسان عند المدرسة الرواقية هي الحياة وفق الطبيعة وما الطبيعة إلا العقل. لذلك احتقروا الأهواء واللذات حيث اعتبروها منافية لمنطق العقل أي مخالفة لطبيعة الإنسان فطالبوا باستئصالها وإبادتها ما أمكن ذلك.[3]

إضافة لما سبق نجد أن الفضيلة ارتبطت عند الرواقيين بفكرة الواجب ومن ثمة أصبحت الحياة الفاضلة متمثلة في إطاعة قوانين العقل الكلي. لتخلص إلى نتيجة أساسية متمثلة في أن الإنسان إما أن يكون فاضلا أو غير فاضل لأن الفضيلة كل لا يتجزأ فإما أن

---

[1]) المرجع نفسه، ص 83.

[2]) أميرة حلمي مطر، مرجع سابق، ص 383.

[3]) محمد مهران رشوان، **تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية** (د. ط، القاهرة : دار قباء، 1997)، ص 104.

توجد أو لا توجد وإن وجدت لا تكون ناقصة ولا تقبل التغيير. ومن أهم الفضائل التي دعت إليها الرواقية هي ضبط النفس والاكتفاء بالذات والحكمة.[1]

أما فيما يخص الأبيقورية نسبة لمؤسسها أبيقور (**Épicure** 270.341 ق.م) فقد جاء مفهومه للفضيلة بناءا على تأثره بفلسفة ديمقريطس (**Démocrite** ت.460 ق.م) المادية حيث قاده هذا التأثر إلى القول بأنه ليس لنا سوي هذه الحياة الدنيا ويجب علينا أن نجعلها سعيدة قدر المستطاع وهذه السعادة في نظر أبيقور لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الحصول على أكبر قدر ممكن من اللذات وتجنب أكبر عدد ممكن من الآلام، وبذلك أصبحت الفضيلة عند أبيقور هي إصابة اللذة. فاللذة خير في ذاتها. حيث أنه إذا استطاع الإنسان أن يحصل على اللذة ويتجنب أكبر قدر من الألم فقد أصاب الفضيلة[2]. إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه أن اللذة التي تحدث عنها أبيقور ليست بالمعني المطلق إذ نجده يحددها بحدود وضوابط حيث يقول :"ليست اللذة الخاصة بالفساق أو المتع الجسدية مطلقا وإنما اللذة المقصودة هي التي تتميز بانعدام الألم في الجسم والاضطراب في النفس"[3].

من خلال ما سبق يمكن القول أن السمة الأساسية التي ميزت البحث في مفهوم الفضيلة عند هؤلاء الفلاسفة سواء منهم اليونانيين أو الرومان متدينين أو غير متدينين هو اعتمادهم على العقل والتجربة كوسيلتين لتحقيق ذلك.

غير أن هذا الطرح والتصور أصبح مغايرا مع فلاسفة العصور الوسطى إذ أصبحت الفضيلة مصدرها الوجدان لا العقل وهذا انطلاقا من أن الله (سبحانه) هو الذي يحدد الفضيلة ويميز بين الخير والشر وبالتالي ارتبطت الفضيلة والأخلاق بالإيمان بالله. وهذا ما ذهب إليه القديس أوغسطين (**Augustin** 430.354.م) عندما أكد أن الفضائل لا تطلب

---

[1]) المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[2]) جلال الدين سعيد، **أبيقور الرسائل والحكم**،(د. ط، تونس: الدار العربية للكتاب،1991)،ص 106.

[3]) المرجع نفسه، ص 111.

لذاتها ولا من أجل نتائجها النافعة، بل تطلب لأنها تتماشى مع إرادة الله.[1] غير أن هذا لا ينفي تأثر الفلاسفة المسيحيين بسابقيهم من اليونان. فأوغسطين على سبيل المثال عندما حاول أن يوضح طبيعة الفضيلة اتجه إلى التحليل الأفلاطوني للطبيعة البشرية ليؤكد وجود تقابل وتضاد قائم بين عنصرين في الإنسان (عنصر مادي، عنصر روحي).

وبناءا على هذا اعتقد أوغسطين أن تحقق الفضيلة مشروط بخضوع العنصر المادي للعنصر الروحي وأن الخير الأسمى لا يتحقق إلا بخضوع الروح والجسد معا إلى إرادة الله وأوامره.[2] وهذا ما تجسد في قوله "الفضيلة هي تطهير النفس من كل العلاقات والشوائب المادية استعدادا للرحيل إلى الحياة الأخرى والعيش في سلام[3].

أما الإكويني (**Thoma d'Aquin**1225-1274م) المتأثر بمذهب أرسطو الأخلاقي فقد رأي أن الأخلاق تتمثل أساسا في تحقيق الشخصية الإنسانية كهدف أسمى ومادام العقل هو الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات فان تحقيق الفرد لشخصيته وذاته مشروط بالعيش طبقا لقوانينه وأحكامه ومنه فالحياة الفاضلة حسب الإكويني هي التي يكون فيها العقل قائدا وموجها للنفس البشرية [4] فعن طريق العقل حسب الإكويني يكتسب الفرد عادة الفضيلة ويتجنب الشر. ولم يتوقف الإكويني عند هذا الرأي فهو وإن وافق أرسطو أثناء حديث هذا الأخير عن الفضائل الأخلاقية التي تنشأ من المران مثل الشجاعة والعفة والعدالة التي هي ناشئة أساسا عن الروية والمشورة العقلية الصادقة. إلا انه أضاف فضائل أخري روحية تفوق الفضائل التقليدية السابقة. هذه الفضائل أساسها العقيدة المسيحية وتتمثل في الاعتقاد والأمل والحب المسيحي. إن النوع الأول أي (الفضائل الأخلاقية) حسب الإكويني ترفع الإنسان إلى المكانة الأخلاقية السامية، أما النوع الثاني أي الفضائل الروحية فان الله

---

[1]) أبوبكر إبراهيم التلوع، مرجع سابق، ص 109

[2]) المرجع نفسه، ص 120.

[3]) المرجع نفسه، ص 112.

[4]) المرجع نفسه، ص 116.

هو أساسها وبالتالي فهي نعمة إلهية لا يحضا بها إلا المعتقدون والمحبون. وفي هذه النقطة يتجلى تأثير الصبغة الدينية في فلسفة الإكويني الأخلاقية[1]. إضافة لما سبق الفضائل الأخلاقية حسب الإكويني ليست هدفا في حد ذاتها بقدر ما هي وسيلة لبلوغ الخير الأسمى الذي يتمثل في الله ومعرفة حقيقته وطبيعته[2].

في الفلسفة الإسلامية لم يعنى الفلاسفة كثيرا بمبحث الأخلاق، حيث انشغلوا عنه بالبحث في مسائل أخرى. إلا أن هذا لا يعنى عدم وجود نظريات أخلاقية خاصة بالمسلمين، فابن مسكويه (1030.932م) على سبيل المثال أفرد جزءا هاما من كتاباته للحديث عن موضوع الأخلاق وهذا من خلال كتابه "تهذيب الأخلاق". وكغيره من فلاسفة عصره تأثر ابن مسكويه أثناء معالجته لمشكلة الفضيلة بما جاءت به الفلسفة اليونانية من نظريات أخلاقية وخاصة ما ذهب إليه أفلاطون. إذ يعتقد ابن مسكويه أنه ولما كان الخلق صادرا عن النفس فإن الواجب يقتضي معرفة خصائصها من أجل معرفة فضيلتها. وهكذا أشار ابن مسكويه إلى قوي النفس كما أتى على ذكرها أفلاطون وما يتصل بها من فضائل وما يقابلها من رذائل، حيث رأي أن لهذه القوي وظائف وصنائع مختلفة لا تستغني عنها النفس الإنسانية وان اختلفت في القيمة والشرف والترتيب وأشرف هذه القوى حسب ابن مسكويه هي التي تعقل ذاتها وتعقل غيرها فتدير الأمور الإنسانية في كل الظروف ومتى انقادت القوي الأخرى وخضعت لأوامر هذه القوة الناطقة نال الإنسان مرتبة الفضيلة. وفي هذا الصدد يقول ابن مسكويه :"فمن أسوا حالا ممن أهمل سياسة الله عز وجل ونعمته عليه وترك هذه القوي فيه هائجة مضطربة وصار الرئيس مرؤوسا والملك منها مستعبدا"[3]

---

[1]) المرجع نفسه، ص 117.

[2]) المرجع نفسه، ص 123.

[3]) المرجع نفسه، ص 135.

والفضيلة بهذا المعني الذي ذكره ابن مسكويه ليست طبيعية في الإنسان بل يكتسبها الإنسان بالتعلم والمران[1].

ينتمي هؤلاء الفلاسفة إلى نزعات مختلفة لذلك جاءت تحليلاتهم لمفهوم وطبيعة الفضيلة مختلفة، إلاّ أنّ الخاصيّة المشتركة التي تجمع فيما بينهم أنّ بحثهم في الفضيلة اتسم بالغائية، بمعنى أن الفضيلة هي الغاية التي ينبغي أن ينشدها الإنسان وانطلاقا من ذلك أصبحت الحياة السعيدة هي الحياة الفاضلة.

إذا كانت هذه هي الفضيلة في منظور الفلاسفة الكلاسيكيين فإنّ الأمر لا يبدوا من السهولة بما كان أن نحدد المعنى الذي أو رده **ماكيافيللي** للدلالة على مصطلح الفضيلة دون الرجوع إلى النصوص والفقرات التي ورد فيها لاستخلاص المعني الذي وظفه للتعبير عنها. يقول **ماكيافيللي** في أحد نصوصه "إذا واجهت الفضيلة الرعب، تحمل السلاح وسرعان ما تدحره لأنّ قلوب ايطاليا الباسلة لا تزال موجودة ولن تموت". [2]ويقول في نص آخر "ولا ريب أنّ داوود كان رجلا رائعا للغاية كجندي وكمعلم وكقاض وكانت فضيلته من النوع الذي مكّنه بعد أن هزم جميع جيرانه واحتل بلادهم من أن يخلّف لولده الشاب سليمان مملكة وادعة، كانفي وسعه الحفاظ عليها بأساليب مسالمة بدلا من الأساليب الحربية وأن ينعم فيها بثمار ما كان لوالده من فضيلة"[3]وفي نص آخر يقول "يشاء طالع عظام الرجال وبارزيهم، أن يكونوا دائما من المغمورين في أو قات السكينة والسلام وذلك لأن الشهرة الداوية التي حققوها بفضيلتهم (شجاعتهم) تثير الغيرة في صدور الكثيرين"[4].

وإذا أردنا الوصول إلى نتيجة من خلال تحليل هذه النصوص، لا يسعنا إلاّ أن نسلّم أنّ المعني الذي وردت فيه معاني الفضيلة في هذا السياق ما هي إلاّ للدلالة على معنى

---

[1]) المرجع نفسه، ص 134.

[2]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق.ص165

[3]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 294.

[4]) المصدر نفسه، ص 664.

"الشجاعة وهذا ما أراد أن يثبته **ماكيافيللي** في النص الأول حيث أنّ الشجاعة التي كانت متوافرة عند الرومان والتي حققوا من خلالها عديد الانتصارات لا تزال كامنة في قلوب الإيطاليين على الرغم من الفساد الذي انتشر وكذلك الأمر بالنسبة للمعنى الذي وردت فيه في النص الثاني حيث يمتدح **ماكيافيللي** "داوود" الذي تمكن عن طريق شجاعته من هزيمة واحتلال جيرانه ويورث لابنه الشاب سليمان مملكة وادعة، وإلي نفس الرأي ذهب مترجم كتاب المطارحات خيري حمّاد باعتقاده أنّ المعني الذي وردت فيه "الفضيلة" في النص الثالث ما هو إلاّ للدلالة على معنى "الشجاعة".

وإذا أردنا أن نقدم المزيد من الحجج لإثبات ذلك فما علينا إلاّ الاتجاه إلى نصوص كتاب "المطارحات"، ليستوقفنا حديث ماكيافيللي عن الحروب التي خاضها السمنيون مع الرومان وكيف دفعت الهزائم المتتالية التي لحقت بهم، قادتهم اللجوء إلى الدين كملاذ أخير لتقوية عزائم جنودهم وحملهم على عدم التقاعس أثناء الحرب من خلال إجبارهم على القسم بعدم التواني في القتال من خلال طقوس معينة ترغمهم على التوجه بوعودهم إلى الآلهة بأنّهم على استعداد تام للذهاب أين يأمرهم قادتهم العسكريون حيث يقول :"وعندما وقع الاشتباك غلب السمنيون* على أمرهم، لأن شجاعة الرومان والخوف الذي بعثته هزائمهم السابقة في نفوسهم عملت على التوازن مع أي عناد اكتسبوه من فضيلة دينهم ومن القسم الذي أقسموه ومع ذلك فقد اتضح لهم أنّ ليس أمامهم ما يستطيعون الرجوع إليه وأن ليس لديهم أي علاج يستطيعون تجربته جريا وراء الفضيلة التي فقدوها"[1].

إلى جانب هذا فإن هناك نصوصا أخرى استعمل فيها **ماكيافيللي** مصطلح الفضيلة للدلالة على معنى الشجاعة وهذا ما يبدو جليا من خلال حديثه عن الحرب التي قامت بين

---

*السمنيون: قبائل إيطالية كانت تسكن في أبوليا، على مقربة من بلاد اللاتين حاولوا غزو كابوا في القرن الرابع مما أدى إلى حروب مستمرة مع الرومان،(المطارحات،ص274).

[1]) المصدر نفسه، ص 277

الرومان واللاتين، حيث قادت شجاعة القنصلين الرومانيين إلى تثبيت عزائم الجنود الرومان مما أدى إلى نصرهم حيث ضحّى أحدهم بنفسه والآخر بولده حيث يقول :"ولمّا كان هذا العزم قد ثبت في صدور الرومان مدة أطول من ثباته في صدور اللاتين فقد كان هذا وليد الصدفة من ناحية ووليد ما تمتع به القنصلان من فضيلة تمثلت في قتل توركواتوس لولده وقتل ديوسيس لنفسه"[1].

غير أنّه إذا ما تمعنّا في دراسة وتحليل بعض النصوص الأخرى نجد أن **ماكيافيللي** يتحدث عن الفضيلة ويقصد بها معنى "الكفاية" أو "الحكمة والتعقل" وهذا عندما امتدح القادة والأمراء الذين أسسوا ممالك وحافظو عليها أو حققوا انتصارات لأوطانهم حيث يقول :"عندما تخلصت روما من ملوكها انتهت معهم الأخطار التي ينطوي عليها ارتقاء ملك ضعيف أو ملك سيء سدة العرش، وقد تركز سلطان السيادة الآن في القناصل. الذين لم يكونوا ينالونه عن طريق الوراثة أو الخديعة أو العنف الذي يوحي به الطموح وإنّما كانوا يصلون إليه عن طريق أصوات الشعب الحرة. وكانوا تبعا لذلك من أقدر الرجال وأكثرهم كفاية وازدهرت روما في ضل حكمهم الفاضل وواكبها حسن الطالع مرة تلو الأخرى حتى تمكنت من بلوغ أقصى درجة من العظمة التي عاشت فيها سنين طويلة لا تقل عن السنوات التي عاشتها خاضعة لملوكها السابقين"[2].

كما أنّه كثيرا ما امتدح الأمراء والحكام الذين اعتمدوا في تشكيل قوتهم العسكرية على قواتهم الخاصة. وهي الفكرة التي دافع عليها كثيرا لمّا كان موظفا في حكومة فلورنسا. وإذا كان من بين الذين نالهم الكثير من الثناء من **ماكيافيللي** فلا ريب أن يكون "تولّوس" أحدهم حيث يصفه "بالفاضل" ويقصد هنا بمعنى الفضيلة "الكفاية" وتتجلى فضيلة (كفاية)"تولّوس" في نظر **ماكيافيللي** في أنّه استطاع في وقت قصير من حكمه من إنتاج

---

[1]) المصدر، نفسه، ص491.

[2]) المصدر نفسه، ص 297.

جنود ممتازين عندما دفعته الضرورة إلى الحرب رافضا بذلك اللجوء إلى السمنيين أو التوسكان للإفادة منهم، رغم أنه لم يجد في مملكته رجلا قد خاض الحرب من قبل.[1]

وكثيرا ما تحدث **ماكيافيللي** عن فضيلة "نوما بومبيلوس*"، ولا يذهب معنى الفضيلة هنا إلى "الشجاعة" ذلك أنّ نوما كان مسالما ومتدينا ولا يميل كثيرا إلى تعشّق الحرب بل تميّز بالحكمة والتعقل التي جعلت روما مدينة له أكثر من غيره عندما قادته فضيلته (كفايته) اللجوء إلى الدين اعتقادا منه أنه سلطة واجبة وضرورية . إذا استخدمت استخداما حسنا في معالجة القضايا . لإرغام الشعب على تعود الطاعة المدنية كحل أخير عندما رأي ما هي عليه حالة الشعب من قسوة وعنف. وهو ما تمّ من خلال وضعه "دين" ضمن بواسطته أن لا يخاف اللّه في أي مكان آخر طيلة قرون كما يخاف في هذه الجمهورية[2].

لكن إذا كان الأمر ما هو عليه فما هو المعني الحقيقي للفضيلة إذن؟

يقول **ماكيافيللي** في أحد نصوصه :"تظهر هذه الفضيلة التي تمتّع بها كل من "روملوس" و"نوما بومبيلوس" و"توللوس". ملوك روما الأوائل والأساليب التي اتبعوها مدى الطالع الحسن الذي حبيت به المدينة في أن يكون حاكمها الأول محاربا ضاريا وأن يخلفه أمير آخر مسالم ومتدين، وأن يكون ثالثهم محاربا يتمتع بالحماس العسكري الذي عرف به "روملوس"، ويتعشق الحرب أكثر من تعشقه للسلام"[3].

يتضح من خلال هذا النص أن الفضيلة عند **ماكيافيللي** ليس لها معنى واحد، فهو يستعملها للدلالة على معنى الشجاعة عندما يتحدث عن "روملوس" الذي كان محاربا ضاريا وهذا ما مكنه من تأسيس روما وإقامة تشريعاتها. كما يستعملها مرات أخرى للدلالة علي

---

[1]) المصدر نفسه، ص 298.

*نوما بوميلوس: NumaBoumbelos (715. 672 ق.م) وهو الملك الأسطوري الثاني لروما بعد روملوس

[2]) المصدر نفسه، ص 263.

[3]) المصدر نفسه، ص 293.

"الكفاية" عند حديثه عن "نوما" حيث يعتبر روما مدينة له أكثر من "روملوس" . رغم أنه لم يكن متعشقا للحرب بل كان مسالما متدينا . وذلك لأنّه تميز بالحكمة والتعقل ما سمح له الحفاظ على الجمهورية وتنظيمها عدة قرون من خلال لجوئه إلى تثبيت "الدين" لحمل المواطنين الذين يتميزون بالقسوة والعنف على طاعة القوانين. غير أنّ ما يمكن قوله أن **ماكيافيللي** في الغالب يستعمل مصطلح الفضيلة للدلالة على معنى الشجاعة عند حديثه عن بسالة الجنود وقادتهم أثناء الحرب أي "الفضيلة الحربية" والكفاية عند حديثه عن الأمراء والحكام الذين يحسنون إدارة دفة الحكم وتنظيم الجيوش في الأوقات العصيبة.

لكن حتى هذا لا يحل الإشكال لأنه إذا سلمنا أن "الفضيلة" التي يتحدث عنها **ماكيافيللى** المقصود بها "الكفاية" و"الشجاعة" فإننّا سنجد في بعض نصوص كتابه "الأمير" ما يخالف ذلك ويتضح هذا من خلال نفيه صفة العظمة عن "أغاتوكل" على الرغم من توافره على هاتين الصفتين والسبب في ذلك أنّ قسوته ولا إنسانيته وخياناته المتعددة لم تكن موجهة إلى خدمة المصلحة العامة بل كانت رغبة شخصية منه في أن يصبح حاكما على "سراقوزا"[1] وعلى العكس من ذلك تماما نجده يمتدح كثيرا "موسى" عليه السلام و"كورش" و "روملوس" ويصفهم بالعظماء وذلك لأنّهم عرفوا كيف يستغلون مهاراتهم وشجاعتهم في خدمة أوطانهم. فحتى وإن عرف "روملوس" بقسوته وعنفه الذي دفع به إلى قتل ابنه ورضاه بمقتل زميله. إلا أنّ **ماكيافيللي** يبرر له فعلته لأن غاية "روملوس" كانت خدمة المصلحة العامة لا مصالحه الشخصية.

وبناءا على ذلك فإن الحاكم أو الأمير الذي يتمتع بالكفاية والشجاعة لا يمكن أن يكون فاضلا في نظر **ماكيافيللي** إلاّ إذا كانت أفعاله موجهة لخدمة المصلحة العامة. لذلك نجده في كتابه "فن الحرب" ينفي صفة الفضيلة عن الجندي حتى ولو كان في منتهى البسالة إذا لم تكن هذه الأخيرة موجهة إلى خدمة وطنه حيث يقول :"إن كل مواطن يمارس مهنة

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق،ص،51.

الحرب لهدف خارجي لا يكون مواطنا صالحا إذ أنّ عليه أن يخدم بلاده لأنّها في حاجة إليه وأن يحارب في سبيل المجد"[1]

ومن خلال ما سبق يمكن أن نصل إلى نتيجة أساسية فحواها أن الفضيلة عند **ماكيافيللي** هي صفة تطلق على الأفراد الذين يتميزون بالشجاعة أولا أي الضراوة والبسالة والقدرة على اقتحام الصعاب دون خوف أو تردد، والكفاية ثانيا أي الحكمة والتعقل وحسن التدبير والحدس الذي يمكن صاحبه من توقع الأخطار والمشكلات ومحاولة إيجاد الحلول لها قبل استفحالها، وخدمة المصلحة العامة ثالثا، أي أن يكون الهدف والغاية القصوى هو خدمة مصلحة الدولة، وبذلك لا معنى للشجاعة والكفاية مهما توافرت إذا كانت موجهة لخدمة أغراض شخصية.

وبناءا على ما سبق نستنتج أن **ماكيافيللي** لم يتكلم عن الفضيلة كما أتى على ذكرها المفكرون والفلاسفة من قبل أي على مستوى دائرة الأخلاق بل استعملها على مستوى دائرة السياسة، فالفضيلة التي يتحدث عنها إذن ليست "الفضيلة الأخلاقية" بل "الفضيلة السياسية" والتي تكون مطلوبة عند الحكام والجنود على السواء. **فماكيافيللي** حسب ليوشتراوس يميل إلى التمييز بين الخيرية والفضائل الأخرى إلى أن يصبح تعارضا بين "الخيرية" و"الفضيلة". فإذا كانت "الفضيلة" كما قلنا مطلوبة للحكام والجنود فإن "الخيرية" مطلوبة للعوام الذين يشتغلون بوظائف سلمية.[2]

و"الفضيلة" بهذا المعنى التي يجب توافرها في الحكام إذا ارتبطت بالواقع والممارسة ليست ثابتة بل هي متغيرة بحسب الظروف وهذا ما سنعرفه فيما بعد.

يولي **ماكيافيللي** إذن أهمية كبيرة لدور "الفضيلة" في حياة الدول، حيث ساهمت في رأيه فيما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية قديما من رقي وازدهار. وهو يمني نفسه أن

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص125.

[2]) ليو شتراوس، جوزيف كوربسى، تاريخ الفلسفة السياسية، تر. محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام (د. ط، مصر : المجلس الاعلى للثقافة،2005)،ص437.

يظهر في ايطاليا رجل يتمتع "بالفضيلة" لكي يعيد لها وحدتها واستقرارها. فإيطاليا وإن عمّ الفساد في جميع طبقاتها من حكام ومحكومين إلاّ أنه يعتقد أن هناك منابع للفضيلة مازالت كامنة في قلوب الإيطاليين حيث يقول :"إن ايطاليا تتوفر على طاقات قابلة للإصلاحات الأكثر شمولية وهذا من شأنه أن يفجر الشجاعة الكامنة في أي فرد"[1].

فالفضيلة في نظر **ماكيافيللي** كانت ولا تزال موجودة وكل ما يتغير هو توزيعها وفي هذا يقول :"عندما أستعرض في ذهني أنّ الأحداث تتابع سيرها على هذا النحو. يبدو لي أن العالم كان دائما في نفس الوضع وأنه انطوى دائما على قدر من الخير يعادل ما انطوى عليه من الشر، ولكن هذين الخير والشر كانا يختلفان دائما من إمارة لأخرى ويتضح هذا عما نعرفه عن الممالك القديمة التي تبدل فيها الميزان بين الخير والشر من أحدهما للآخر. بسبب التبدلات التي وقعت في أعرافها في حين ظل العالم على ما هو عليه دون أن يتغير".[2] فالفضيلة حسب **ماكيافيللي** دائما موجودة وكل ما يحدث أنها تنتقل من شعب لآخر، ومادام الأمر كذلك فإمكانية استعادتها تبقى قائمة.

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 162.

[2]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 423.

2-<u>الفضيلة والضرورة:</u>

إذا تناولنا كتابي "الأمير" و"المطارحات" بالدراسة نجده يستعمل عبارات مثل "يجب"، "من الضروري"، "ولابد". بحيث يتكرر ورودها في نصوصه أكثر من مرة حيث يقول مثلا :"ولما كانت جميع القضايا الإنسانية من ناحية أخرى. في حالة مستمرة من الحركة والتمدد، ولا يمكن لها أن تقف جامدة راكدة فإن هذه القضايا تكون دائما معرضة إمّا إلى التحسن أو التدهور والانهيار وقد تدفعك الضرورة إلى القيام بأعمال قد لا يقف التعقل والمنطق إلى جانبها".[1] وفي نص آخر يقول :"إنّ الشعوب سريعة التقلب بطبعها وإذا كان من السهل حملها على الاقتناع بشيء معين فإنه من الصعب أن تعزز فيها تلك القناعة يجب أن تتم الأمور حينئذ على النحو التالي، وهو إذا لم تقتنع الشعوب بالأمر فيجب إقناعها بالقوة"[2].

ويتضح من خلال هذا أن **ماكيافيللي** يقدم النصائح للأمراء والحكام إن أرادوا الحفاظ على أنفسهم بأن لا يغفلوا عن الظروف والأوضاع التي تحيط بهم وبالتالي فقراراتهم وسلوكاتهم ينبغي أن تكون مواتية ومنسجمة مع ما تقتضيه الظروف المحيطة. وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن **ماكيافيللي** تحدث عن عدم إمكانية إقامة نظام جمهوري في دولة عمّ فيها الفساد، بل أكّد على ضرورة قيام نوع من الحكم يعتمد على سلطة رجل واحد يتمتع بالقوة لتحقيق النظام والانسجام.

وليس هذا ما نريد أن نبيّنه بل الأهم من ذلك، هو دراسة المعنى الذي وردت فيه تلك العبارات التي سبق ذكرها. ويبدو من خلال النصين السابقين أنّ **ماكيافيللي** يريد أن يبين أنّ هناك منطق يجب على الحكام أخذه بعين الاعتبار وهذا المنطق هو منطق "الضرورة".

---

[1]) ماكيافيللي، **<u>المطارحات</u>**، مصدر سابق، ص238.

[2]) ماكيافيللي، **<u>الأمير</u>**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 35.

ولا يبدو أنّ **ماكيافيللي** يقصد "بالضرورة"(**nécessaire**)على نحو ما يذهب إليه علماء اليوم أي أنّ هناك علاقة حتمية بين الأسباب والنتائج المترتبة عنها، بحيث إذا توافرت نفس الأسباب فإن الضرورة تحتم علينا القول أن نفس النتائج هي التي سوف تحدث. بل كل ما يريد قوله أنّ الحاكم أو الأمير الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الحفاظ على نفسه وعلى دولته يسلك وفق ما يشاء إذا كانت الأمور في حالتها العادية، لكن أحيانا أخرى يجد نفسه مرغما على سلوك طريق معين مرغما، بحيث لا يصبح المجال فسيحا أمامه للاختيار إن هو أراد الحفاظ على نفسه وعلى دولته. والذي يرغمه هي تلك "الظروف والأوضاع" التي يجد الأمير فيها نفسه غير قادر على الاختيار. فهي التي تملي عليه الطريق الذي يجب إتباعه أثناء حكمه لشعبه مهما كان نوعه، باعتباره الطريق الوحيد الذي يحقق الغاية وهي الحفاظ على الدولة، ومنه فقد يلجأ الأمير إلى إتباع طريق القسوة والعنف إذا انتشرت الفوضى والفساد ويصبح ذلك النوع من الحكم مبررا ما دام الطريق الوحيد والأنسب.

كما قد يذهب معنى الضرورة عند **ماكيافيللي** إلى تلك الحاجة الملحة التي لا تستدعي انتظارا ويظهر هذا من خلال قوله مخاطبا قيصر بورجيا: "إنّ قضيتك عادلة وبالتالي فهي ضرورية".[1] وحتى هذا المعنى لا يخرج عمّا أو ردناه في الفقرة السابقة، لأنه وفي نظر **ماكيافيللي** مادامت قضية "بورجيا" عادلة فهي ضرورية، ولا تستدعي منه التفكير بل لابد من العمل على تحقيقها في أقرب وقت.

ويعتبر "منطق الضرورة" عند **ماكيافيللي** مبدأ عمل دائم تسير وفقه الحياة السياسية سواء أيام "السلم" أو "الحرب". فهو معيار المعاملة لدى الأمير سواء في علاقته مع شعبه أو مع الحكام الآخرين وفي هذا يقول: "ولا ريب أنّ الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في كل شيء سيصاب بالحزن والأسى عندما يجد نفسه محاطا بهذا العدد الهائل من الناس الذين لا خير فيهم، ولذلك من الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، فاروق سعد(ط.12،بيروت:منشورات دار الأفاق الجديدة، 1982)، ص 199.

كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها وفقا لضرورات الحالات التي يواجهها".[1]

وبناءا على ذلك فإن الحاكم أو الأمير "الفاضل" الذي يكون هدفه خدمة المصلحة العامة لا مصالحه الشخصية الضيقة. هو الذي يراعي أثناء تسيير شؤون رعيته عامل "الضرورة" بحيث يكون من الحيطة والحذر الذي يجعله يسلك طريق الخير، لكن إذا تحتّم عليه الأمر فلا يجب أن يتوانى عن سلوك طريق الشر.

إنّ المتأمل في كتابات **ماكيافيللي** يدرك تمام الإدراك أن **ماكيافيللي** نفسه كان خاضعا لمنطق "الضرورة" الذي تحدث عنه. فلقد قرأ كثيرا عن التاريخ القديم من خلال مؤلفات "تيتوس ليفوس"* وأعجب أيّما إعجاب بالنظام الجمهوري الذي كان سائد في الإمبراطورية الرومانية. وكثيرا ما نجده في نصوصه يقيم الدليل على تفضيله للنظام الجمهوري، لكن وانطلاقا من الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاصره، وملاحظته لسلوكات الأفراد الأنانية وتصرفاتهم مع الحكام، والفساد والانقسام الذي أدت إليه الكنيسة أرغم **ماكيافيللي** على تأكيد ضرورة الحكم المطلق كحل مؤقت لمعالجة الداء الذي عانت منه إيطاليا.

ومنه وطبقا لمبدأ الضرورة فإن الحاكم يلجأ إلى تعليق كل شيء بما في ذلك القانون والدين والقواعد الأخلاقية العادية في سبيل خدمة المصلحة العامة التي هي فوق كل اعتبار. فالمصلحة العامة في الأخير هي التي تبرر الخروج عن القواعد الأخلاقية المتعارف عليها ومن ثم فالسلوك الذي يأتيه الأمير لا ينبغي إدانته مهما كان مشينا بوصفه الطريق الوحيد

---

[1]) المصدر نفسه، ص 136.

*تيتوس ليفوس : TitusLevusخطيب ومؤرخ روماني ولد سنة 59 ق.م وتوفي 17 ميلادي، ألف مؤلفا حول تاريخ روما يتكون من 142كتاب، علق على بعضها ماكيافيللي في كتابه الموسوم بالمطارحات "المطارحات ص 11 ".

المتاح أمامه لتحقيق غايته. وإن وصلت روما إلى ما وصلت إليه قديما من الازدهار والعظمة في نظر **ماكيافيللي**، فلا يعود ذلك إلى الحظ أو حسن الطالع بل لأن حكامها عرفوا كيف يسلكون طريق الخير، وفي مقابل ذلك كانوا من الحيطة بحيث لا يتوانون عن سلوك طريق الشر إذا تطلب الأمر ذلك. يقول **ماكيافيللي** :"والضرورة فقط هي التي دفعت الرومان قديما إلى اللجوء إلى الغلظة مع مواطنيها بعد طرد الملوك الترقونيين طالما كان ثمة خطر من احتمال عودتهم".[1] لذلك يري **ماكيافيللي** أنّ التاريخ يعلمنا أنّ الحكام الذين لم يهملوا ما تدعوا إليه الحاجة الراهنة قد نجحوا في حكمهم فها هو قيصر بورجيا يعمد إلى تعيين "روميرو دي أوركو" لإنهاء الاضطرابات لما اشتهر به من قسوة. إيمانا من بورجيا أنّ القوة والعنف هي السبيل لإحلال النظام والاستقرار، لكن وفور تحققه دفعت الضرورة "بورجيا" إلى إبعاد "اوركو" عن السلطة خوفا من أن يبدأ المواطنون في كرهه بسبب قسوته تلك، ليلجأ إلى إرساء قواعد مدنية تحت سلطة رجل بارع، لأن ضرورة حفظ النظام العام تتأتي هذه المرة من شرعية الشعب. ولم يتوقف عند هذا الحد لمّا دفعته خشيته أن تكون أعمال "أوركو" قد ولّدت الكراهية في نفوس المواطنين، ولتجنب هذه الاحتمال عمل على قتله بطريقة نالت استحسان الشعب عندما نظروا إليه على أنه حاميهم.[2]

وهكذا يقدم ماكيافيللي النصيحة للحكام والأمراء بأن يكونوا على استعداد للتصرف على منوال "بورجيا" متى اقتضت الضرورة ذلك، وأن يكونوا من المرونة لتغيير وجهات نظرهم فلا يسلكوا نفس السلوك إذا تغيرت الظروف والأوضاع ولهذا يقول :"وهكذا عندما لا يدرك الرجل الحذر كيف يكون عنيفا متى ما توجب ذلك فإنه يقود نفسه بنفسه إلى السقوط".[3] وإذا كان هذا هو الطريق الذي أدى بالقدماء إلى تحقيق العظمة، فما على حكام

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص95.

[2]) ستيفن ديلو، **التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني**، تر، ربيعة وهبة،(د. ط، مصر: الإسكندرية) ص 153.

[3]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص، 156.

اليوم إلاّ الاقتداء بهم لأن طبيعة البشر واحدة وما نجح في الأيام السابقة، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى نفس النتائج اليوم، لذلك فطريق الخير محمودة ولكن طريق الشر أيضا تصبح طريقة فعّالة عند الضرورة. وفي هذا الصدد يقول :"يمكن أن نصارع بطريقتين: إمّا بواسطة القوانين أو بواسطة القوة. أمّا الطريقة الأولى فهي خاصة بالبشر وأما الثانية فهي خاصة بالدواب. ولأنه غالبا ما لا تغني القوانين فنكون حينئذ مجبرين على اللجوء إلى القوة".[1] ينبغي إذن على الأمير أن يعرف كيف يتصرف بحسب المناسبة إمّا كحيوان أو كإنسان وهذا حسب ما تمليه عليه الضرورة. فلا مجال للاختيار حسب **ماكيافيللي** بالنسبة للأمير الجديد إلّا أن يسلك طريق القسوة والعنف وذلك لأن الأخطار تتضاعف وتكون أكبر في هذه الدول وفي هذا الصدد يقول :"ينبغي أن ندرك جيدا أنه من غير الممكن للأمير خاصة إذا كان حديثا في المنصب أن يحافظ على كل ما من شأنه أن يجعل الناس يذكرونه بخير، وإن كان مضطرا غالبا، من أجل تثبيت الدولة أن يعمل ضد الإنسانية وضد الرحمة حتى، ينبغي أن يكون متمتعا بفكر مرن جدا ليلتفت إلى الأشياء حسبما توجهها له رياح الصدف وأحداثها ينبغي كما قلت أن لا يحيد عن طريق الخير بالقدر الذي يستطيع أن يعرف عند الضرورة كيف يلج طريق الشر".[2]

وإذا كان مبدأ الضرورة يتحكم في العلاقة بين الحاكم ورعيته، فكذلك الأمر نفسه بالنسبة لمنطق "الحرب". وكثيرا ما أكد **ماكيافيللي** في كتابه "فن الحرب "على ضرورة أن يكون فن "الحرب" الشغل الشاغل للأمير في أو قات الحرب كما في أو قات السلام، بل أن يكون المهنة الأولى للحاكم بحيث يعنيها كثير اهتمامه أكثر من أي شيء آخر، كما ينصحه أن يتقيد بضروراتها فلا يلجأ إلى طريق الخير لأنه سيؤدي إلى هلاكه وذلك لأن منطق "الضرورة" الذي يحكم الحرب لا يعترف بالقيم الأخلاقية يقولّ :"إن الحرب هي مهنة الحكام الخاصة، ورسالتهم الممكنة دائما، وهي تفرض الاستجابة لضرورة طبيعتها. اللجوء إلى

---

[1]) المصدر نفسه، ص، 106

[2]) المصدر نفسه،ص109.

العنف وإلى المجازفة واللؤم، وإلى طائفة أخرى من الرذائل التي تحول الحكام بالضرورة إلى أشرار، كما لو أن خبث البشر لا يمكن السيطرة عليه وإخضاعه للنظام والسلام إلا بالخبث".[1]

وإذا أردنا أن نصل إلى نتيجة من خلال كل ما سبق، فلا يسعنا إلا أن نقول أن منطق "الضرورة" يشكل مكانة هامّة في الفكر السياسي عند **ماكيافيللي**. فعلى أساسه تختبر كفاءة وحكمة الأمير، فهو الذي يعلمه كيف يطيح بالقيم الأخلاقية التي تعتبر من القضايا الجوهرية والأساسية في الحياة اليومية العادية من أجل تحقيق المنافع المهمة لشعبه ووفقا لهذا المبدأ تبرر كل الوسائل التي يلجأ إليها الحاكم لبلوغ أهدافه، وذلك لأن الضرورة لا تعرف قانونا.

[1]) ريمون بولان، **الأخلاق والسياسة**، تر، عادل العوّاط، (ط2، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،1992) ص731.

3-الفضيلة السياسية والفضيلة الأخلاقية

لقد كان **ماكيافيللي** رجل سياسة وممارسة إذ لم يكن هدفه البحث عن النظام السياسي الأمثل الذي يحقق العدالة والمساواة كما ذهب الفلاسفة من قبل. بل بحث في الأساليب التي يجب على الحكّام إتباعها في أو ضاع وظروف محددة. فلا أحد ينفي كما يعتقد **ماكيافيللي** أنّه من الخيّر للأمير أن يكون رحيما ومتدينا وصادقا وسخيا...لكن هذا يبدوا متعذرا في عالم يعيش فيه الأفراد مثل الذئاب. حيث غابت المعايير الأخلاقية التي تحكم سلوك الأفراد وأصبحوا يعيشون في عالم عمّت فيه الشرور وعمّ فيه الفساد. والحقيقة التي ينبغي على الحكام أخذها بعين الاعتبار حسب **ماكيافيللي**، إمّا أن يتصرفوا وفق ما هي عليه الطبيعة البشرية وإمّا أن يعرضوا أنفسهم للهلاك وفي هذا يقول :"سيكون جميلا جدّا ومن دون شك وباتفاق الجميع أن تكون الخصال الحميدة التي أتيت على ذكرها مجتمعة في الأمير ونظرا لاستحالة ذلك ونظرا لكون الظروف البشرية لا تحتمل ذلك أبدا. فيجب أن تكون على الأقل هناك حيطة للتخلي عن هذه النزوات المشينة التي قد تؤدي به إلى تضييع دولته. وأمّا ما تعلق بالفضائل الأخرى فإني أنصحه بالتمسك بها إن استطاع إليها سبيلا وإن لم يستطع فلن يكون هناك مانع كبير في ترك نفسه على سجيتها مع قليل من التحكم".[1]

ولا ينبغي على الأمير أبدا في نظر **ماكيافيللي** أن يخشى أن يتهم ببعض العيوب ذلك أن العامّة قصيري النظر ولا يحكمون على الأفعال إلا من ظاهرها، في حين أنّ الأفعال التي يأتيها الأمير فوق مستوى الوعي الذي يتوافر عليه عامة الشعب لذلك يكفى أن تكون النتائج مستحسنة حتى يسارعوا إلى الالتفاف حوله. وذلك لأنه في ميدان السياسة حسب **ماكيافيللي** تتبدل القوانين فما يبدوا فضيلة على مستوي الأخلاق العادية قد يصبح رذيلة على مستوى النسق السياسي، وكذلك الأمر نفسه كثيرا ما تبدوا بعض الأفعال رذيلة من منظور

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص94.

الأخلاق العادية إلاّ أنّها تصبح وسيلة فعّالة عند الضرورة وبالتالي تصبح فضيلة من الفضائل على مستوى النسق السياسي.[1]

والحاكم أو السياسي الذي لا يرضخ لهذه الضرورة فإن عمله آيل للإخفاق والفشل لا محالة. ولتجنب هذه النتيجة فما عليه إلا أن يتصرف بحيطة وحذر وأن لا يولي عناية كبيرة للوسائل التي يستعملها مادام الحفاظ على الدولة لا يتم إلا من خلالها وذلك لأن الأخلاق التقليدية قد تكون جوهرية في ممارسة العلاقات في إطار الأسرة أو بين الأصدقاء ولكن ليس لها وجود في الغالب في نظام يدعو الأمير إلى إظهار الجرأة والشجاعة المطلوبتين لضبط الأحداث العامة بغرض منافع عامة.[2]

إن السياسي الضعيف أو الجاهل حسب **ماكيافيللي** هو الذي يأخذ بالفكرة القائلة أن القيم الأخلاقية مطلقة بحيث تضل ثابتة دون تغير، والفضيلة تبقي فضيلة دائما والرذيلة رذيلة على الدوام، في حين أن الرجل السياسي القوي العالم بخفايا الأمور وباطنها هو الذي يدرك أن واجبه أن لا يتقيد ساعة الضرورة بمبادئ الأخلاق المعروفة، وذلك لإدراكه أنها يمكن أن تكون أداة هدم بدل أن تكون أداة بناء، وبذلك تصبح القيم الأخلاقية نسبية إذا ارتبطت بضرورات الدولة ومستلزماتها.

وانطلاقا من كل هذا فإن **ماكيافيللي** في كتابه "الأمير" لا يتوانى عن تقديم النصائح للأمير الذي وجد نفسه في مثل هذه الأوضاع أن يلجا إلى سبل الشر كالقسوة والعنف والغدر والحيلة بوصفها رذائل على المستوي الأخلاقي لكن في ميدان السياسة تصبح وسيلة فعالة من أجل حفاظ الحاكم على دولته. لذلك نجده يقدم له المبرر للجوء إلى القسوة والعنف إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى وحدة رعاياه وولائهم. حيث أن القسوة تبعث الخوف في نفوس الأفراد مما يحملهم على طاعته، ذلك أنّ الأفراد بطبيعتهم يترددون في الإساءة لمن يخافونه أكثر من ترددهم في الإساءة للأمير الذي يجعل نفسه محبوبا. وما النهاية التي آل إليها

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص128.

[2]) ستيفن ديلو، مرجع سابق، ص152.

الراهب الدومينيكاني "سافونارولا" في نظر **ماكيافيللي** إلا دليل يؤكد عدم جدوى طريقة الوعظ والنصح والإرشاد، ذلك أنه وبعد أن شن "سافونارولا" حملة على الفساد الأخلاقي الذي عرفته الكنيسة آنذاك انتهت بطرد آل مديتشي من فلورنسا عمل على إنشاء نظام يقوم على الزهد والوعظ ومحاولة نشر القيم الأخلاقية والدينية إلا أن حكمه ما لبث أن انهار بعد حوالي ثلاث سنوات من بدايته ولقد تعلم ماكيافيللي من هذه الحادثة عدم جدوى الطريقة التي اتبعها الراهب سافونارولا.[1]

والأمر نفسه ينطبق على الأمير إذا كان على رأس جيشه خاصة إذا كان عدده كبيرا لأنه وبدون هذه الشهرة لن يتمكن من ضبطه وحمله على الطاعة، ولولا هذه القسوة لما تمكن "حنبعل" من السيطرة على جيوشه. قد تبدوا هذه الخصلة مشينة ولا أخلاقية لكنها ضرورية لأن من يغفل عنها ما يحدث له هو عين ما حدث مع "سيبيون" الذي اشتهر بالشفقة والرأفة ما جعل جنوده يسمحون لأنفسهم بالكثير من التسيب المنافي للانضباط العسكري وهو ما أدّى في النهاية إلى ثورة جنوده عليه.[2] فما على الحكام في نظر **ماكيافيللي** اليوم إلاّ التمعن في المثالين السابقين وسلوك الطريق الذي يتوافق مع غاياتهم إن هم أرادوا الحفاظ على أنفسهم وعلى دولهم، ولا ينبغي القول أنّ **ماكيافيللى** يناقض نفسه عندما وجه اللّوم إلى قيصر بورجيا. فاللوم ليس واقعا في هذه الحالة على أساليب القسوة والعنف والنهب التي كان "بورجيا" يتبعها وإنما اللّوم واقع على سماحه "لجوليوس الثانى" أعدى أعدائه بأن ينتخب لمنصب البابوية بعد وفاة ألكسندر السادس.[3]

وإلى جانب القسوة يعتبر **ماكيافيللي** أنّ "البخل" وإن كان رذيلة من الرذائل إلاّ أنه يصبح وسيلة ضرورية وفعّالة لابد من اللجوء إليها حيث يقول :"ينبغي على الأمير الذي لا

---

[1]) إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة، ص250.

[2]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص104.103

[3])ارنست كاسيرر، **الأسطورة والدولة** تر، أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي (د. ط، مصر: المكتبة العربية 1975) ص198.

يريد أن يضطر لإفقار رعيته، ولا يريد هو نفسه أن يصبح فقيرا أو ممقوتا من أجل الدفاع عن عرشه. ألاّ يخشى كثيرا إمكانية وصمه بالجشع، فهي إحدى الخصال السيئة التي تسمح له بتسيير الحكم".[1] ويحقق هذا السلوك غايتين، فمن ناحية عن طريق تقتير الأمير وشحه يستطيع توفير وسائل الدفاع اللازمة لدولته وفي الوقت نفسه لا يضطر لإرهاق شعبه ومن ناحية أخرى يتجنب الأمير كراهية شعبه، ذلك أنّ إفراطه في السخاء يؤدى إلى فقره ومن ثم إلى كراهيته وهذا ما ينبغي أن يتجنبه الأمير الفاضل. ويعطى **ماكيافيللي** من الأدلة الكثير عن الأمراء الذين نجحوا في حكمهم عن طريق هذه الخصلة حيث يقول :"لم نشاهد في وقتنا الحاضر إنجاز أعمال كثيرة، إلا من قبل الذين اشتهروا بالبخل أما البقية الباقية فقد ضلت في العتمة... ولو أن الملك الاسباني الحالي قد عرف بالسخاء لما استطاع تنفيذ كل تلك المشاريع".[2] إلاّ أنّ **ماكيافيللي** يعتقد أن السخاء لابد منه وضروري بالنسبة للأمير الذي يخرج إلى الغزو مع جيوشه من أجل أن يحمل جنوده على الطاعة ففي رأيه هذا ما فعله "سيروس" و"القيصر" و"الاسكندر" وما ينبغي أن يفعله حكام اليوم.

قد يذهب الاعتقاد إلى أنّ **ماكيافيللي** يناقض نفسه عندما نجده مرة يمتدح الأمير السخي وتارة أخرى يؤكد على ضرورة اتصافه بالجشع لكن هذا الاعتقاد سرعان ما يزول إذا عدنا إلى المبادئ التي أقرها **ماكيافيللي** في بحثه السياسي، عندما ركّز على ضرورة أخذ الظروف التي هو فيها الأمير بعين الاعتبار فلا يمكن أن يأتي سلوكا واحدا إذا كانت الظروف قد طرأ عليها التغيير. لذلك نجده عند حديثه عن السخاء يفرق بين من يكون أميرا أو في طريقه للإمارة حيث يرى أن السخاء في الحالة الأولى يؤدى به إلى الضرر بينما يكون في الحالة الثانية ضروري. ويضرب لنا **ماكيافيللي** مثالا عن "قيصر" حيث كان السخاء عاملا من عوامل الرقي الذي ناله لما كان في طريقه للإمارة لكن **ماكيافيللي** يعتقد

---

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص، 99.

[2]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها،

أنه لو قدر لقيصر أن يعيش طويلا وبقي على سخائه ذلك لكانت إمبراطوريته آيلة للزوال.[1] ثمّ إن تأكيد **ماكيافيللي** على ضرورة السخاء بالنسبة للأمير الذي يخرج للغزو راجع إلى أن الأمير في هذه الحالة لا يتصرف في ماله، بل يتصرف في ملك غيره المكتسب من السلب والنهب والغنيمة التي توفرها الحروب وبالتالي لا يضطر الأمير إلى إفقار نفسه وهوما لا يعرضه للكراهية ومنه لا يكون السخاء مضرا به في هذه الحالة.

إضافة إلى ما سبق فإن الضرورة تدعو الأمير إلى عدم المحافظة على عهوده وهذا يبدو منافيا للأخلاق أيضا لكن الأمير يجد نفسه ملزما على ذلك. فالأمير كثيرا ما يطلق وعودا إذا كانت لا تسبب له أي مشكلة، لكن عندما تزول تلك الأسباب التي دفعته إلى ذلك فلا يجب أن يتوانى عن نكث عهوده حيث يقول :"إنّ الأمير النبيه لا ينبغي أن يفي بوعده عندما يغدو الوفاء مضرا به. وعندما تزول الأسباب التي كانت دفعته إلى ذلك".[2] ولا ينبغي أن يفهم هذا الرأي بعيدا عن التصور الذي أعطاه **ماكيافيللي** للطبيعة البشرية حيث أن الأفراد سيئون بطبعهم وهم بدورهم لن يحافظوا بوعودهم اتجاه من يحكمهم وبالتالي فإنّ الحاكم الذي يبني حكمه على أقوالهم ماله الفشل، ذلك أنّ الأفراد متقلبون وهم مع حاكمهم إن كانوا في حاجة إليه لكنهم مستعدون للانقلاب عليه إن كانوا عن الحاجة بعيدين ومن هنا يغدو الوفاء مضرا بالحاكم إن هو أراد الحفاظ على نفسه وعلى دولته. وما ينبغي على الأمير فعله هو التظاهر بالتحلي بهذه الصفة فقط، وفي هذا يقول :"من المستحسن أن تعرف الدولة كيف تتزين بالألوان المحبوبة للوفاء والعدل والحق والاحترام الدقيق للاتفاقيات والإنسانية، ومن المستحسن إظهار أن هذا المعتدي والمنازع والظالم والمنتهك للحق والوعد هو الطرف الآخر. عدو الأمس واليوم والغد".[3]

---

[1]) المصدر نفسه، ص98.

[2]) المصدر نفسه، ص107.

[3]) جون جاك شوفاليه، مرجع سابق، ص245.

وكما أن الوفاء يغدوا مضر بالأمير إذا التزم به أثناء حكمه لرعيته، فإن الأمر نفسه ينطبق على الأمير في علاقته مع الحكام الآخرين أو في سياسته الخارجية ذلك أنّ طبيعة البشر واحدة.

فالحاكم في سبيل الحفاظ على دولته يلجأ إلى وضع العديد من الاتفاقيات مع الدول الأخرى، يلتزم بالحفاظ عليها ما دامت تخدم مصلحته، إلاّ أنّه ينبغي أن يكون على استعداد لخرقها إذا دعت الحاجة والضرورة لذلك بحيث لم تعد خادمة لمصلحة دولته. والأمير الذي يحيد عن هذا الطريق فإن ما يؤول إليه هو وقوعه تحت رحمة الآخرين لذلك يرى **ماكيافيللي** أنه لو استعمل "فيرديناند الكاثوليكي" وهو ملك "ارغون وكاستي" الذي كان يشتهر بالسلم والإيمان هذين المبدأين دائما لما استطاع الحفاظ على دولته.[1]وقد استخلص **ماكيافيللي** مبدأه هذا إضافة للتصور الذي أعطاه للطبيعة البشرية، من ملاحظته ودراسته للتاريخ والحوادث التي أثبتتها التجارب المعاصرة وذلك أن الكثير من الأمراء الذين حققوا مآثر عظيمة لم يكونوا مكترثين كثيرا للوعود التي يطلقونها وهذا على حساب أولئك الذين جعلوا من الوفاء مبدأ وقاعدة لسلوكهم وفي هذا يقول: "يدرك الجميع مدى حب الرعية للأمير حينما يتسم بالوفاء في أقواله، ويتصرف بإخلاص ودون خداع غير أننا شاهدنا في زمننا هذا أشياء كثيرة نفذها أمراء لم يكونوا يعيروا أدنى اهتمام للوفاء وكانوا يعرفون كيف يفرضون ذلك التراجع على الرجال بواسطة الحيلة والخداع، ورأينا هؤلاء الأمراء في الأخير ينتصرون على أولئك الذين يجعلون من الوفاء قاعدة لسلوكهم فلا شك أنّ المغالطة والمراوغة كانت هي الشغل الشاغل لإسكندر...ولطالما وجد الفرصة في خداعه ذلك ولطالما أثمر خداعة ذلك عن النفع".[2] ولكن ما ينبغي على الأمير أن يأخذه بعين الاعتبار إن أراد نكث عهوده أن يكون من الدهاء والذكاء الذي يمكنه من إيجاد طريقة لتمويه الطرف الآخر بحيث يتمسك بنص المعاهدة في ظاهريته بينما يتلاعب به في معانيه، مثلما فعل الرومان قديما وحققوا

---

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر، عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص110.

[2]) المصدر نفسه، ص108.

عن طريقه إنجازات عظيمة. ولتبيان هذا يعطي **ماكيافيللي** بعض الأمثلة ومن بينها ما تعلق بالمعاهدات التي تبرم بين الدول. فإذا كانت هناك معاهدة سلام بين أميرين مثلا ودفعت الضرورة أحدهما إلى نكث المعاهدة فإن الطريقة الأنسب لذلك هي أن يقوم الأمير الذي يريد أن يتملص من هذه المعاهدة بمهاجمة أحد حلفاء الأمير الآخر بذلك يتحطم هدف المعاهدة الذي هو في الأصل منع وقوع الحرب بينما الحرب في هذه الحالة محتومة.[1]

من خلال ما سبق يتضح أن **ماكيافيللي** يفضّل أن يكون الأمير أو الحاكم جامعا لكل الصفات الحسنة من صدق، وفاء، رحمة، سخاء...الخ. لكن الأمير الذي يتحدث عنه **ماكيافيللي** يجد نفسه بين أمرين إمّا أن يكون من الحكمة والذكاء اللذان يمكنانه من التكيف مع مقتضيات الواقع فيسلك في سبيل الحفاظ على نفسه وعلى دولته طرقا قد لا تتفق مع مبادئ الأخلاق والدين لكنها تصبح وسيلة فعالة وضرورية، وإما أن يكون ماله السقوط والانهيار. وبالتالي **ماكيافيللي** لم يهاجم مبادئ الأخلاق ولكنه لم يكتشف أي فائدة عند الربط بينها وبين مشكلات السياسة. فلقد علمته تجربته السياسية أنه لا وجود لأي لعبة سياسية لا تعتمد في لعبها على الغش والخداع والغدر.[2] لذلك ففضيلة خدمة المصلحة العامّة تدفع بالأمير إلى التخلي عن الصفات الأخلاقية لأنه وبدون هذه الفضيلة ستكون الدولة مهددة بالانهيار بفعل ما هو متأصل في الجنس البشري من أنانية.

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 129،130.

[2]) ارنيست كاسيرر، مرجع سابق،ص194.

خلاصة:

من خلال ما سبق يتضح جليا أن **ماكيافيللي** لم يتطرق إلى مشكلة الفضيلة كما أتى على ذكرها الفلاسفة القدماء أي على مستوى دائرة الأخلاق بل ذكرها على مستوى الصعيد السياسي فعلى الرغم من تمجيده لفضائل مثل الشجاعة والكفاية والحكمة والتعقل وهي تقريبا نفس الفضائل التي ركز عليها الفلاسفة الأقدمون إلا أن **ماكيافيللي** نقح مفهومها بما يتوافق مع متطلبات المعضلة السياسية التي كان يبغي حلها. ومن هذا المنطلق أصبحت الفضائل والرذائل حسب **ماكيافيللي** لا قيمة لها في ذاتها ولا تحمل أي دلالة أخلاقية بمعزل عن الغاية أو النتيجة التي تحققها المتمثلة في ضرورة أن تكون خادمة للمصلحة العامة التي هي في الأخير مصلحة الوطن.

من خلال ما سبق يمكن القول أنه وبعد أن كانت الفضيلة عند الفلاسفة القدماء غاية في ذاتها أي تطلب لذاتها لا لشيء آخر تحول هذا المعني والتصور مع **ماكيافيللي** إذ انه وحسب هذا الأخير لا يمكن وصف سلوك معين مثل الشجاعة أو الحكمة بصفة الفضيلة إلا بمقدار مساهمة هذا الفعل في خدمة المصلحة العامة لذلك فالشخص الشجاع الحكيم لا يمكن أن يكون فاضلا إلا إذا كانت شجاعته وحكمته موجهة إلى خدمة مصالح الوطن، وعلى هذا الأساس رفض **ماكيافيللي** أن يصف اغاتوكل بصفة العظمة على الرغم من توافره على هاتين الصفتين السالفتي الذكر كما.

بناءا على ذلك وانطلاقا من الواقع السياسي الذي عايشه وعاصره **ماكيافيللي**، والغاية التي كان يرمى إلى تحقيقها وهي الحفاظ على الدولة، فلقد خلص **ماكيافيللي** إلى نتيجة أساسية حاول أن يبين من خلالها أن مبادئ الأخلاق العادية إذا ارتبطت بالممارسة السياسية أصبحت نسبية بمعني أن كثيرا من السلوكات التي تبدو من منظور الأخلاق العادية فضائل تصبح رذائل على الصعيد السياسي، كما أن كثيرا من السلوكات التي تبدو رذائل على مستوي الأخلاق العادية إلا أنها تصبح فضائل على مستوى الصعيد السياسي وهذا وفقا لمبدأ الضرورة الذي يتيح للأمير أو الحاكم أن يأتي بعض التصرفات التي تعتبر منافية للأخلاق إلا أنها تصبح ضرورة لابد منها من أجل الحفاظ على الوطن.

الفصل الثالث

مكانة الفضيلة عند

ماكيافيللي

مدخل:

إن الغاية الأساسية التي كان **ماكيافيللي** يطمح إلى تحقيقها هي توحيد القومية الايطالية التي مزقتها الفتن والصراعات وهي التي كانت في زمن غير بعيد مهدا لحضارة عريقة عمرت العديد من القرون. لذلك فقد كان جل بحثه منصبا حول البحث عن السبل والطرق الكفيلة التي تحقق هذه الغاية، ولقد اشرنا فيما سبق إلى أن السبب الرئيسي الذي جعل من ايطاليا ما هي عليه من انحلال وفساد حسب **ماكيافيللي** مرده في الأول والأخير لغياب فضيلة خدمة المصلحة العامة التي حققت عن طريقها الإمبراطورية الرومانية قديما الكثير من العظمة والازدهار وكذلك فرنسا واسبانيا، حيث طغت حسب **ماكيافيللي** الأنانية وحب خدمة المصلحة الذاتية على تصرفات الايطاليين حكاما ومحكومين حتى ولو كان في تحقيقها مساس وتهديد لمصلحة الوطن، لذلك حاول **ماكيافيللي** من خلال مؤلفاته خاصة منها كتاب "الأمير" و "المطارحات" بالاعتماد على خبراته المكتسبة أثناء توليه العديد من المناصب الإدارية في فلورنسا والتي مكنته من التعرف على الطريقة التي كانت تحكم بها دول مثل اسبانيا وفرنسا لما تولي قيادة العديد من البعثات الدبلوماسية إلى جانب اطلاعه على التاريخ القديم من خلال مؤلفات "تيتوس ليفوس" والتي أكسبته ثقافة معتبرة حول فن الحكم والسياسة، تبيان ما للفضيلة من أهمية ودور كبيرين في تأسيس الدول والحفاظ عليها.

انطلاقا مما سبق وبعد أن حددنا طبيعة الفضيلة عند **ماكيافيللي** فلقد حاولنا جاهدين في هذا الفصل أن نبين مكامن وتجليات مكانة الفضيلة في تأسيس الدول والحفاظ عليها، وقد حاولنا حصرها في ثلاث نقاط أساسية اعتمادا على ما ورد في مؤلفات **ماكيافيللي** نفسه، حيث سنحاول التطرق لرأي **ماكيافيللي** الذي تكلم عليه بإسهاب فيما يخص الأهمية البالغة لعامل الفضيلة أثناء منح مناصب تسيير شؤون الدولة، وتأكيد **ماكيافيللي** على هذه النقطة لم يكن نابعا إلا من ملاحظته المتكررة لتصرفات حكام وأمراء دويلات ايطاليا ذلك الوقت إذ طغت عليهم الأنانية فلم يكونوا يولون أي أهمية ما عدا خدمة أغراضهم وأهدافهم الشخصية حتى ولو كان في تحقيقها تعريض الوطن للخطر. لننقل إلى

نقطة أخري لا تقل عن الأولى أهمية فيما تعلق بالأهمية البالغة للفضيلة في تكوين أسلحة قوية تحفظ الوطن وتصونه وهي الفكرة التي دافع عنها كثيرا لما كان موظفا في الحكومة حيث طالب بتكوين جيوش وطنية بدل الاعتماد على أسلحة المرتزقة التي أدت إلى خراب ايطاليا. ومن خلال النقطتين السابقتي الذكر حاولنا أن نصل إلى نتيجة ثالثة مترتبة عنهما المتمثلة في تأكيد **ماكيافيللي على** أهمية ودور الفضيلة في مواجهة سلطان الحظ، حيث حاولنا الوقوف على مفهوم الحظ كما أتي على ذكره **ماكيافيللي** وتبيان السلطان الذي يملكه في التأثير على الصيرورة الطبيعية للدول لنستنتج أن للفضيلة دورا هاما وفعالا في مواجهة سلطان الحظ وتأثيره.

1-مكانة الفضيلة في تولي المناصب الإدارية للدولة:

إنّ الطرح الذي طرحه **ماكيافيللي** واقعي في أبعاده حيث كان اهتمامه منصبّا على تحليل الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاصره من أجل استخلاص القوانين والقواعد التي من شأنها أن تؤسس دولة بعد انهيارها أو المحافظة على قوتها إن كانت عن الفساد بعيدة. معتمدا في ذلك على الملاحظات المكتسبة من تجاربه الطويلة، بالإضافة إلى ما قرأه من مؤلفات "تيتوس ليفوس". كتب **ماكيافيللي** إذن مؤلفاته وهو يتساءل عن الأسباب التي أدت إلى ضعف إيطاليا في عصره وفي مقابل ذلك يحلل الأسباب التي أدت إلى عظمة الإمبراطورية الرومانية قديما للبحث عن العوامل التي كانت حاضرة قديما وغابت الآن؟ هذا ما عكف **ماكيافيللي** على تحليله وهو ما سنحاول إيضاحه.

لقد كان المجتمع الإيطالي على حد تعبير جورج سباين وكما ذكره **ماكيافيللي** وكما اتّفق عليه أغلب المؤرخين مهدا لعصر النهضة، حيث كان مجتمعا لامعا من الناحية العقلية وخلاّقا من الناحية الفنية فكان أكثر مجتمع أوروبي تحررا من أغلال السلطة، إلاّ أنّه كان مثالا يوضح بشكل خاص حالة من الفساد والانحلال السياسي، حيث ماتت المؤسسات المدنية وأصبح القتل والعنف أدوات عادية للحكم.[1] فها هي إيطاليا مقسمة ومجزّأة إلى عدة دويلات لكل منها نظامها الخاص وطريقتها في الحكم. فكانت مملكة نابولي في الجنوب ودوقية ميلان في الشمال الغربي، والجمهورية الأرستقراطية بالبندقية في الشمال الشرقي وجمهورية فلورنسا التي نشأ وترعرع وتقلد فيها **ماكيافيللي** العديد من المناصب الإدارية وأخيرا الدولة البابوية في الوسط.[2]

إنّ هذا الانقسام وهذا الفساد الذي ألت إليه إيطاليا في نظر **ماكيافيللي** لا يعود في حقيقة الأمر إلا للكنيسة ورجالها، حيث كان يرى فيها السبب المباشر لما آلت إليه ايطاليا

---

[1]) جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، الجزء 3، تر. د. راشد البدراوي، تقديم، د. احمد سويلم العمري، (د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ص33.

[2]) المرجع نفسه،ص31.

وذلك لأنّه وعلى الرّغم من أنّ الباباوات تمكنوا من تكوين دولة أكثر تماسكا وصلابة من باقي الدويلات الايطالية، إلاّ أنّهم لم يكونوا في يوم من الأيام من القوة التي تمكنهم من توحيد إيطاليا برمتها، كما أنّهم لم يكونوا يوما من الضعف الذي يسمح للآخرين للقيام بهذا التوحيد، وبالتّالي فلقد غدت إيطاليا في ظلهم في حالة تطور سياسي متوقف ممّا جعلها عرضة لتكالبات من الدول المجاورة والتي كانت تفوقها قوة وتنظيما.

إنّ هذا الوضع ناجم عن حرص رجال الكنيسة على تحقيق مصالحهم، إذ من مصلحة رجال الكنيسة أن لا يتوحد أمراء الدويلات الإيطالية وهذا خوفا على السلطة التي اكتسبوها لأنّ في توحد إيطاليا قوة لسلطة المؤسسة الوضعية وإضعاف لسلطة المؤسسة الدينية. وهو الأمر الذي ما كان رجال الكنيسة ليقبلوه بأي حال من الأحوال وفي هذا الصدد يقول **ماكيافيللي** :"ينبغي أن نعرف أنه عندما شرع منذ زمن في طرد الإمبراطورية الفرنسية من إيطاليا وأصبح البابا يتمتع باحترام كبير في تلك الفترة الزمنية الوجيزة، انقسمت إيطاليا إلى عدد كبير من الدويلات...وغدت تلك الدويلات مستقلة بتشجيع من الكنيسة التي كانت تبحث عن تزكية الرصيد الذي اكتسبته...ونتج عن هذا أن إيطاليا أصبحت تحت تبعية الكنيسة أو بكيفية ما تحت سيطرتها أو سيطرة بعض الجمهوريات...".[1]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد كما يرى **ماكيافيللي**، فبالإضافة إلى تغذيتها للانقسام لم تكن يوما من الشجاعة والحكمة الكافيتين التي تسمح لها من تهيئة سبل الدفاع عن نفسها بنفسها، بل إنها لجأت للأجانب لمساعدتها في الدفاع عن نفسها وبذلك جرت إيطاليا إلى العبودية وفي هذا الصدد يقول **ماكيافيللي** :"وبما أن القساوسة مثل المواطنين المسالمين لا يحسنون أبدا استخدام السلاح، فقد شرعوا في استخدام الأجانب وبذلك قادوا إيطاليا إلى العبودية والمهانة".[2]

---

[1])ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق. ص 78.

[2]) المصدر نفسه، ص 78.

وبمقدار مساهمة الكنيسة في إضعاف وانهيار إيطاليا فلقد ساهمت أيضا في تدهور الروح الدينية للأفراد والتي جعلت كل إنسان لا يؤمن بها ولا ثقة له فيها حيث يقول :"ولو أراد أحد أن يخمن الأسباب التي أدت إلى تدهور هذه الروح الدينية لما وجد خيرا من التطلع إلى تلك الشعوب التي تعيش على مقربة من كنيسة روما وهي رأس ديانتنا. إذ يرى أن الدين أضعف لديها من عند الشعوب البعيدة..."[1] وذلك لأن رجال الكنيسة في نظر **ماكيافيللي** ابتعدوا عن المغزى الحقيقي الذي رسمه مؤسس المسيحية، حيث أنّه لو احتفظ حكام وأمراء الدول المسيحية بنقاوة وطهارة الطقوس الدينية التي يؤمنون بها لكانت هذه الدول والجمهوريات في وضع أحسن مما هي عليه.[2]

وهكذا ينبغي أن نفرق بين موقف **ماكيافيللي** اتجاه رجال الكنيسة وموقفه من الدين فهو لم يهاجم رجال الكنيسة إلاّ لأنهم ابتعدوا عن المبادئ الصحيحة للدين المسيحي، أمّا موقفه من الدين فهو واضح إذ يعتبره دعامة أساسية في الحفاظ على الدولة لذلك نجده يقول:"على كل من يرغب من الأمراء والجمهوريات البقاء في نجوة من الاحتلال أن يحتفظ بنقاء طقوس الديانة التي يؤمن الأمير أو الجمهورية بها وأن يحلها محل الإجلال دائما، إذ لا دليل أصدق على انحطاط أي بلد من البلدان من رؤية العبادة السماوية فيه موضع الإهمال وعدم الاكتراث".[3]

من خلال ما سبق يتضح حسب **ماكيافيللي** أن هذه هي الحالة التي تنتهي إليها الدول إذا كان القائم على شؤونها حكام وأمراء عن الفضيلة بعيدون فتجدهم يسعون إلى تحقيق أمجادهم الشخصية دون أن يقدموا أي تضحيات في سبيل رفعة دولهم، إذ أنه من الواجب الاعتقاد أنّه حيثما وجدت الفضيلة كانت الدول في مأمن من الفوضى والاضطراب وحيثما غابت الفضيلة فإن الفساد والانحلال والفتن هي التي تسود. فالفضيلة وحدها هي

---

[1])ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 267.

[2]) المصدر نفسه، ص267.

[3]) المصدر نفسه، ص265.

التي قادت روما قديما إلى تحقيق عظمتها وازدهارها إذ أنّ كل واحد منها يضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار.

وما يقيم الدليل على صحة ذلك هو الكيفية التي نجحت روما من خلالها في تحقيق قوتها وتوسيع إمبراطورتها عندما تولى حكمها رجال على قدر كبير من الفضيلة على منوال "روملوس، نوما، تواللوس" ومدي الانتصارات التي حبيت بها في ظل حكمهم الفاضل. وهذا لا يعود في نظر **ماكيافيللي** إلاّ لإدراك روما مدى الأهمية الكبيرة للفضيلة في الحفاظ على الدول وهو ما تجلّى في أنها لم تنشد سوى عامل الفضيلة في منحها مناصب تسيير شؤون الدولة دون النظر إلى أي عامل من العوامل الأخرى مثل عامل السن أو الثروة والجاه وفي هذا الصدد يقول **ماكيافيللي:** "تشهد السجلات التاريخية أنه بعد أن غدت مناصب القنصلية مفتوحة أمام العامة، كانت الجمهورية الرومانية تمنح هذه الرتبة لمواطنيها دون أي قيود من ناحية العمر أو المولد، ولم تكن روما في الحقيقة تلقي بأي اهتمام لمسألة السن، وكان كل ما تنشده هو الفضيلة سواء وجدت عند الشبان أو الكهول ولقد اختير "فالبروس كورفينوس" قنصلا وهو في سن الثالثة والعشرين من عمره ممّا يقيم الدليل على صحة ما قلت. ذلك لأنّه قال في خطاب ألقاه في جنوده. إنّ القنصلية هي جائزة الفضيلة لا جائزة طيب المنبت"[1] وهذه الطريقة في نظر **ماكيافيللي** فاضلة لأنّ التاريخ أثبت نجاعتها إذ لو سلكت روما طريقا آخر غير هذا الطريق لكان مالها ما آلت إليه إيطاليا اليوم حيث أثبت الواقع والتاريخ ضعفها، إذ ظلت تتخبط في المشاكل والاضطرابات حينما لم تكن لها نفس التنظيمات والقوانين والأسس التي كانت روما متوافرة عليها.

بناءا على ما سبق نستنتج أنّ **ماكيافيللي** قدم تحليلا تاريخيا وواقعيا ليستخلص في الأخير أن سبب رفعة الدول يعود في الأول والأخير لإبلائها مكانة هامة للفضيلة أثناء منحها لمناصب الدولة، أما الدول التي أهملت هذه الحقيقة فكان مالها الفوضى والاضطراب

---

[1]) المصدر نفسه،ص417.

وما على الدول في نظر **ماكيافيللي** إلاّ أن تتأمل هذه الأمثلة وأن تستفيد وتعتبر ممّا تقدمه دروس التاريخ لتطبيق العلاجات التي طبقها الأقدمون.

تكتسي الفضيلة إذن مكانة مهمة في الفكر السياسي عند **ماكيافيللي**، إذ أنّ غيابها يؤدي بالدول إلى الوقوع تحت رحمة غيرها من الدول. ومادامت هذه النتيجة التي لا ترغب الدول الوصول إليها فإنّ **ماكيافيللي** يقدم النصائح بأن لا يسند أي منصب من مناصب الدولة إلاّ للأفراد الذين يتمتعون بالكفاية اللازمة والشجاعة الكافية التي تكون موجهة لخدمة المصلحة العامة.

أمّا فيما يخص ايطاليا التي انتشر فيها الفساد فطريقها إلى الوحدة لا يكون إلاّ إذا أطاعت حكومة واحدة بحيث تكون هذه الحكومة على درجة من الفضيلة التي تمكنها من تحقيق ما حققته الدول المجاورة مثل (إسبانيا، فرنسا). إذ وعلى الرغم من اشتراكهم مع إيطاليا في الفساد إلاّ أنهم تمكنوا من الحفاظ على دولهم لمّا تولى حكمهم ملوك فاضلين.

هكذا فإنّ الحكم المطلق هو الحل بالنسبة للدول التي انتشر فيها الفساد على غرار ايطاليا. وهذا لا يتأتى إلا بظهور رجل عبقري يمتاز بالحكمة والكفاءة اللازمتين على منوال "نوما وروملوس" اللّذان أسسّا لروما قوانينها وتشريعاتها، رجل دولة يمتاز بإرادة قوية وذكاء ثاقب يمكنه رؤية باطن الأشياء قبل ظاهرها يستفيد من الماضي ليشق طريقه ليعيد إيطاليا لمجدها ومكانتها بين الدول[1].إيمانا من **ماكيافيللي** بأنه ليس هناك حد لما يستطيع أن يفعله رجل دولة يتميز بخصائص غير عادية تمكنه من الالتفات إلى الوسائل اللازمة والضرورية للحالة الراهنة، رجل يتوقع المشكلات قبل ظهورها ليعمل على علاجها قبل بروزها، رجل يمارس سلطة لا اقتسام فيها وهذا لأن طبيعة البشر كما يرى **ماكيافيللي** ميّالة إلى الشر أكثر من ميلها للخير لذلك فاقتسام السلطة قد يعرض الدولة للخطر مادام احتمال استخدام السلطة بطريقة غير فاضلة وارد، وليقيم **ماكيافيللي** الدليل على هذا يسرد مثالا من التاريخ

---

[1]) Gerard Colonna distria et rolandfrapet, le art politique chez machaivel, (paris,liprairie philosophique, 1980), p. 88.

القديم حيث يقول :"وقد وقع هذا في طيبة. إذ بفضل ما تمتع به ايبامينوداس من فضيلة تمكن هذا الرجل من النجاح في الحفاظ على الشكل الجمهوري للحكومة طيلة المدة التي عاشها. لكن الأمور عادت إلى عهدها السابق بعد موته".[1]

بواسطة هذا العبقري فقط تستطيع الدول التي هي في وضع مثل ايطاليا الخروج من محنتها هذا ما ذكره **ماكيافيللي** على حد تعبير جورج سباين حيث يقول :"ليس المشرع بالمهندس الذي يبني الدولة فحسب ولكنه مهندس المجتمع أيضا بكل سننه الأخلاقية والدينية والاقتصادية".[2]

بناءا على ما سبق يتضح أنّ الغاية الأساسية التي كان ينشدها **ماكيافيللي** هي توحيد القومية الايطالية واسترجاع هيبتها التي فقدتها، وتحقيق هذه الغاية لا يمر إلا عبر طريق واحد وهو طريق الفضيلة. فمتى تولّى إدارة شؤون الدولة رجال فاضلين فالغاية المنشودة لا محالة سوف تكون في طريقها للتحقق إذ أن بروز أي مدينة يعتمد على ما لمؤسسها من فضيلة، فلتحذر الدول كل الحذر أن تولي مهمّة إدارتها لأناس غير أكفاء ومنحهم مناصب لا يستحقونها لأن هذا من شأنه أن يخلق للدولة مشاكل ويعرضها للاضطرابات.

---

[1]) المصدر نفسه،ص286.

[2]) جورج سباين، مرجع سابق، ص 23.

2-مكانة الفضيلة في تحقيق القوة العسكرية للدولة:

إذا كانت للفضيلة مكانة هامّة في تولي المناصب الإدارية للدولة، إذ عليها يتوقف بروز أو ضعف أي مدينة أو دولة بما تسنه من قوانين تحفظ لها وجودها. فإنّ هذه القوانين سوف تكون غير ذات أهمية كبيرة إذا لم تتخذ الدولة الإجراءات المناسبة التي تسمح لها بتطبيق هذه القوانين، وهذا لا يتم إلاّ عبر توافر الدولة على أسلحة قوية تحافظ من خلالها على نفسها ممّا يمكن أن تتعرض له من اضطرابات في داخلها أو من ضربات الدول الأخرى.

وانطلاقا من هذا يمكن القول أنّ هناك علاقة ضرورية قائمة بين توافر القوانين الجيّدة والأسلحة الجيّدة وهذا ما بينه **ماكيافيللي** في كتابه "الأمير" حيث يقول :"إنّ القواعد الأساسية لكل دولة سواء كانت قديمة أو حديثة أو مختلطة إنّما هي القوانين والأسلحة الجيّدة. وبما أنه لا يمكن أن توجد قوانين جيّدة حيث لا تكون أسلحة جيّدة، فإنّ القوانين الجيّدة توجد حيث توجد الأسلحة الجيّدة".[1] فإذا تمكنت أي دولة من تحقيق هذه المعادلة فإنها عن الانهيار بعيدة.

ولتحقيق هذه المعادلة يقدم **ماكيافيللي** تحليلا معمّقا من أجل تبيان الأسس الصحيحة التي يجب أن يتبعها كل أمير أو جمهورية إن هم أرادوا تشكيل أسلحة قوية تحفظ لهم وجودهم. و**ماكيافيللي** لا يقدم هنا تحليلا نظريا بل يعتمد على سيل من الملاحظات والتجارب التي اكتسبها من الواقع السياسي الذي عايشه ومن دراسته المطولة للتاريخ القديم وفي معرض تحليله ذلك بيّن أنّ هناك أنواعا معينة من الأسلحة في متناول أي أمير أو جمهورية لغاية الاعتماد عليها، حيث لا تخرج على أن تكون إمّا أسلحة شخصية وهي التي تتكون من الرعايا والمواطنين الذين هم من صنيع الأمير، أو أسلحة مرتزقة وهي التي تعيش من السلب والنهب يجلبها الأمير للقتال تحت إمرته مقابل أجرة، أو أسلحة مساعدة وهي التي

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 71.

يبعث بها أمير أو جمهورية لنجدة أمير آخر بحيث يتولى قيادتهم قادة تابعين لمن أرسلهم وهو من يتولى دفع مرتباتهم، وأخيرا قد تكون أسلحة مختلطة.[1]

ولا يبدوا أنّ **ماكيافيللي** متحمس كثيرا لأسلحة المرتزقة. حيث رأى فيها السبب الذي أدّى إلى ضعف وخراب إيطاليا وفي هذا الصدد يقول :"إنّ الانهيار الحالي لإيطاليا آت من كونها اعتمدت ولسنين طويلة على جيوش المرتزقة".[2] فهي التي أدّت في رأيه إلى سقوط ايطاليا في يد ملك فرنسا "شارل" دون أي عناء. ويظهر عدم جدوى الاعتماد على هذا النوع من الأسلحة لما يكمن في طبيعتها، ويقدم **ماكيافيللي** هنا تحليلا نفسيا لهذا النوع من الأسلحة، حيث أنّ جنود المرتزقة ليس لهم قضية معينة يدافعون عنها ما عدا الأجر الذي يتلقونه، ولا يبدو هذا الأجر في نظر **ماكيافيللي** كافيا بالنسبة لهم حتى يزجوا بأنفسهم في مواطن ومكامن الخطر، ثمّ إن من مصلحتهم أن لا تتوقف الحرب مادامت هي السبيل الوحيد الذي يدر عليهم ببعض المال، ولهذا فإنّ الأمير الذي يعتمد عليهم إنّما يقود نفسه للسقوط بدل النهوض وفي هذا الصدد يقول :"إنّ الأمير الذي لا سند لسلطته غير جيوش المرتزقة لن يعرف الدعة ولا الاطمئنان أبدا، لأنّ مثل هذه الجيوش غير متحدة وطموحة جدا، وغير منضبطة وغير مخلصة وقاسية على الأصدقاء وجبانة مع الأعداء ثم إنّ لا خوف لديها من الرب ولا حياء عندها من البشر، ومهما تأجل الهجوم منها على الأمير فإنّه لن ينجو من السقوط بين يديها. وبذلك فإنه في حالة السلم عرضة للسلب من قبلها وفي حالة الحرب يتكفل العدو بأمره".[3]

لذلك نجد **ماكيافيللي** يركز في تقديم نصائحه للأمير أن لا يغفل عن هذه الحقيقة التي مفادها أنه إذا غابت رابطة الحب والثقة عن الجنود تجّاه الأمير الذين يحاربون تحت إمرته فإنه من المستحيل تحقيق الانتصارات وكسب المعارك. ولتبيان هذه الحقيقة يقدم

---

[1]) المصدر نفسه،ص72.

[2]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها،

[3]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ماكيافيللي بعض الحقائق التي وقعت في روما قديما، حيث أنّه وفي ظل حكم مجلس العشرة لم تحقق جيوش الرومان انتصارات كبيرة مثل تلك التي اعتادت على تحقيقها رغم أنها كانت تتوافر على الشجاعة اللاّزمة، لكنها سرعان ما عادت لتحقيق مآثر عظيمة فور انتهاء حكم "مجلس العشرة" والسبب في ذلك أنّها لم تكن تكن نفس ميول الحب اتجاه مجلس العشرة.[1]

تعد إذن هذه هي الأسباب الرئيسية التي دفعت **ماكيافيللي** لتوجيه اللّوم لهذا النوع من الأسلحة والأمراء والجمهوريات الذين يعتمدون عليها. إلاّ أنّ ما ينبغي الإشارة إليه أنّ المخاطر الناجمة عن استخدام جيوش المرتزقة في نظر **ماكيافيللي** تعد أقل خطرا إذا ما قورنت بالمخاطر الناجمة عن استخدام أنواع أخرى من الأسلحة، وهو هنا يتحدث ليشير إلى الأسلحة الإضافية أو الأسلحة المساعدة حيث يقول: "تريدون أن تجعلوا أنفسكم عاجزين عن النصر استخدموا الجيوش المساعدة التي هي أشد خطرا حتى من المرتزقة".[2] ووجه الخطورة القادم من الاعتماد على الجيوش المساعدة أنّها إمّا أن تكون ضعيفة وبالتالي لا فضل ولا فائدة لها على الأمير الذي استنجد بها، وإمّا أن تكون جيّدة فيكون الخطر أعظم إذا ما حقّق الأمير الانتصار بفضلها وذلك لأنّ احتمال الوقوع تحت رحمتها وارد ما دامت على عكس الجيوش المرتزقة تؤلف نظاما يسهل من إمكانية انقلابها على الأمير الذي وظفها إذا ما هي تلقت إشارة ممن أرسلها. وهذه هي النتيجة التي وقعت "ريغيوم" فيها حيث تمّ اغتصاب استقلالها وانتزعت أرضها على أيدي فرقة بعث بها الرومان إليها لحمايتها.[3] وهو عينه ما حدث مع "الميلانيين" حين استنجدوا "بفرانسيسكو سفورزا" أثناء حربهم مع البندقيين حيث تعرضوا للاضطهاد من قبل هذا الأخير.[4]

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 364.

[2]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق. ص 82.

[3]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر السابق، ص520.

[4]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 75.

هكذا بيّن **ماكيافيللي** عدم جدوى الاعتماد على هذين النوعين من الأسلحة، لنجده يقدم النصائح للأمراء والجمهوريات الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على دولهم أن يستفيدوا من تجارب غيرهم التي أثبتت أنّ خير أسلحة يمكن أن يعتمد الأمير عليها لا تخرج على أن تكون أسلحته الشخصية والتي تكون من صنيعه هو، وهذا لا يتأتّى إلا بتكوين جيوش وطنية تتكون من رعاياه تملأ قلوبهم الفضيلة، يحاربون من أجل قضية يشتركون فيها مع حاكمهم ألا وهي الدفاع عن الوطن. لأنّه وبدون هذا الشعور لن تتمكن الجيوش من الصمود طويلا في ساحة الحرب وفي هذا الصدد يقول :"لا يوجد أمير في مأمن مالم تكن له جيوشه الخاصة، فبمجرد مواجهته لأي محنة وهو بدون دفاع يكون مصيره حتما بين الأقدار. لذلك فالأفراد المستنيرون يقولون دائما أنّه لا يوجد ما هو أهش ولا ما هو أكثر ضياعا من قيمة غير مؤسسة على القوات الخاصة".[1] هذا هو السبيل في نظر **ماكيافيللي** لتحقيق قوة عسكرية تستفيد منها الدول والجمهوريات في إطار سعيها نحو تحقيق غايتها وهي المحافظة على قوتها. لذلك نجده دائما يمتدح "بورجيا" و "داوود" عليه السلام وهذا لإدراكهم عدم جدوى الاعتماد على غير الجيوش الخاصة لأنّ غيرها غير مخلص وغير مضمون وفي هذا الصدد يقول :"لذلك فإن الأمراء والحكام تفادوا دائما استخدام هذين النوعين من الجيوش وفضلوا الاعتماد على جيوشهم الخاصة وحبذوا الانهزام معها على الانتصار مع جيوش الآخرين. وكانوا لا يرون نصرا حقيقيا يكونون فيه مدينين لقوات أجنبية".[2]

فإذا أراد أي حاكم أو أمير أن يحافظ على حكمه ودولته فما عليه إلا أن يسلح نفسه برجاله ورعاياه. هذا ما أثبته التاريخ إذ أن جميع الأمراء والجمهوريات التي قامت بالحرب عن طريقهم طالما حققت العديد من الانتصارات، وما الحريّة التي عاشتها روما واسبرطة لمدة قرون لا يعود إلا لنفس السبب، ولو لم يكن جميع سكان سويسرا جنودا لما عاشت هي

---

[1]) المصدر نفسه، ص86.

[2]) المصدر نفسه، ص 83.

الأخرى في حرية تامة بل إنّها تعرضت للاضطهاد مثل القرطاجيين في العهد القديم نتيجة اعتمادها على جيوش المرتزقة في حربها مع روما.[1]

تبعا لهذا فما على الأمراء والجمهوريات في نظر **ماكيافيللي** إلاّ تأمل هذه الحقائق وأن يسارعوا إلى تكوين قوة عسكرية اعتمادا على فضيلة مواطنيهم الذين هم تحت ولائهم وأن يحسنوا تنظيمهم وأن لا تمنح مناصب قيادة الجيوش إلاّ للأفراد الذين يظهرون فضيلة نادرة. وهذا إيمانا منه أن بناء جيش قوى لا يمكن أن يرتكز إلا على أكتاف رجل يكون على درجة عالية من الفضيلة وهذا ما ذكره **ماكيافيللي** في كتابه "المطارحات" في معرض حديثه عن الأفضلية ما بين قائد ممتاز وجيش ضعيف وجيش قوي وقائد ضعيف. إذ وعلى الرغم من إدراكه لقدرة القائد الممتاز على تكوين جيش قوي بمثل ما للجيش الممتاز من قدرة على إنتاج قائد ممتاز، إلا أنه يعتقد أن الجيش الطيب إذا ما افتقر إلى القائد الطيب يكون عرضة للفتن ويستدل في ذلك بما وقع للجيش المقدوني بعد موت الإسكندر، وللتعبير عن ذلك يقول :"وعلى هذا أرى أنه في وسع الإنسان أن يضع مزيدا من الثقة في القائد الممتاز الذي يجد الوقت الكافي لتدريب رجاله، والفرصة اللاّزمة لتسليحهم من تلك التي يستطيع وضعها في الجيش الذي تسوده الفتن، والذي يضع على رأسه قائدا شديد الهياج، ويعود الفضل والفخر والحالة هذه إلى أولئك القادة الذين لا يكتفون بهزيمة العدو، بل يقبلون قبل الاشتباك معه على تدريب قواتهم وتحويلها إلى جيش رائع فهم في عملهم هذا يبدون فضيلة مزدوجة وهو أمر نادر، إذ أنّ الاعتراف بها بالنسبة إلى الكثيرين من الانضباطيين الصارمين يجعلهم أقل استحقاقا للإجلال والتقدير من حقيقتهم".[2]

ماكيافيللي إذن وهو يسرد ويحلل هذه الأمثلة أدرك تمام الإدراك بأن الضعف والمهانة التي آلت إليها ايطاليا ما هي ناجمة في حقيقة الأمر إلا عن الغيّاب التام للفضيلة عن قادة الجيوش الايطالية الذين تناوبوا على حكمها. إذ أنّهم لم يدربوا جنودهم أحسن تدريب، ولم

---

[1]) المصدر نفسه، ص74.

[2])ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 656.

يقوموا بالاحتياطات اللازمة التي تفصح عنها فضيلة القيادة، بل كل ما فعلوه أنهم ركنوا إلى الراحة ولم يحسبوا حسابا كاملا أو قات السلم لما يمكن أن يقع أو قات الحرب.[1] ولو كان قادة الجيوش الإيطالية على حال غير هذا أي كما كان عليه الرومان قديما لحققوا نفس الانتصارات التي حققتها روما. وفي هذا الصدد يقدم **ماكيافيللي** العديد من الأمثلة التي تثبت الأهمّية والقيمة الكبيرة لعامل الفضيلة في حسم الأمور إذا ما كان قادة الجيوش على حظ وافر منها. ومن بين تلك الأمثلة الحادثة التي وقعت أثناء قيام الجيش الروماني بحصار مدينة "في"**(vi)** فلقد حدث وأن أنهك الجيش الروماني من طول مدة الحصار وأراد العودة إلى روما إلاّ أن فضيلة قادة ذلك الجيش لعبت دورا حاسما في حمل هؤلاء الجنود على الصبر والثبات بعدما لجأوا إلى تفسير العرافين الذين أكدّوا أن مدينة "في"(vi) ستحتل في العام الذي ترتفع فيه مياه بحيرة "ألبا" عن مستواها العادي وكانت النتيجة أن احتل الرومان هذه المدينة.[2]

ولما كان الأمر على ما هو عليه فإننا نجد **ماكيافيللي** يلقي باللّوم على الأمراء والجمهوريات الذين يهملون إيلاء مكانة هامة لعامل الفضيلة أثناء تعيين قادة الجيوش لأنّه وبدون هذه الفضيلة تتعرض الدول للفوضى والاضطراب وفي هذا الصدد يقول :"وعندما يتميز شاب بالفضيلة التي رافقت عملا عظيما من أعماله، بحيث يغدو موضع حديث الجميع فمن العار كل العار أن لا تنتفع الدولة من خدماته وأن يضطر هذا الشاب إلى الانتظار حتى يكبر سنه ويكون في غضون ذلك قد فقد ما يتميّز به من نشاط عقلي ومن سرعة في العمل. كان في وسع بلاده أن تستغله في وقته المناسب استغلالا نافعا وهكذا أفادت روما من "فالبريوس كورفينوس" ومن "شيبو بومبي" وكثير غيرهم من الذين نالوا لها انتصارات رائعة في شرخ شبابهم".[3]

---

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 79.

[2]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 270.

[3]) المصدر نفسه، ص417.

بناءا على ما سبق يتضح أنّ وجود القوانين الجيدة لا يكون إلاّ بتوفر الأسلحة الجيّدة وتوافر هذه الأخيرة لا يتأتى إلا من خلال الاعتماد على الجيوش الخاصة التي تكون على قدر كبير من الفضيلة، خاصة إذا ما عززت بقادة أكفاء. بمثل هذه الطريقة فقط تستطيع الدول أن تحافظ على نفسها وأيّ طريق غير هذا فإن ما تؤول إليه هو عينه ما آلت إليه ايطاليا اليوم والإمبراطورية الرومانية قديما، حيث أن السبب الرئيسي في نظر **ماكيافيللي** الذي أدى إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية تمثل في ضم عناصر القوط **(Goths)** إلى صفوفها حيث ساهم هذا الضم في توتر الجيوش الوطنية بطريقة جعلت كل القيم التي تحلّت بها هذه الجيوش تضييع لتتحول إلى مصلحة البرابرة.[1]

وكخلاصة لما سبق يمكن القول أنه بالقدر الذي تكتسيه الفضيلة في المحافظة على الدول إذا كانت متوافرة في من يقف على رأس الدولة فان لها من الأهمية بالقدر نفسه في بناء جيش قوي من أجل حماية الدولة من ضربات الأعداء والحفاظ على الوطن من الاندثار والضياع.

[1])ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 86.

3-في مواجهة الحظ :

تطرق **ماكيافيللي** في مؤلفاته خاصة منها كتاب "الأمير" و "المطارحات" إلى فكرة الحظ **(fortune)** بالتحليل والنقاش فبعد أن بيّن مفهومه للحظ والذي غالبا ما يورده للدلالة على "فعل السماء" أو على الحوادث والنوازل التي تحل بالأفراد والدول والتي غالبا ما تكون خارجة عن سيطرتهم ولا يستطيعون التحكم فيها، بحيث تعيق تقدمهم نحو غاياتهم التي يصبون لتحقيقها. نجده يذهب إلى تحليل السلطة التي يملكها الحظ في التأثير على مجرى الحوادث الإنسانية. حيث نجده بين ثنايا سطور مؤلفاته يتساءل : هل مصير الإنسانية بين يديها ؟ أم أن هناك طريقا محتوما ينبغي أن تسير وفقه ؟ هل قدر إيطاليا أن تعيش في الهوان ؟ إذا كان الأمر كذلك. فلماذا نجد روما قديما وقد نالت ما نالت من الرقي والازدهار والأمر كذلك بالنسبة لإسبانيا وفرنسا وألمانيا في وقتنا الحاضر؟.

إنّ مثل هذا الرأي ما لا يمكن أن يقبله مفكر مثل **ماكيافيللي**، وإن امن بأن هناك محن ومصائب لا يكون للأفراد والدول دخل فيها وهذا ما يتضح من خلال قوله :"لو فكر الإنسان تفكيرا عميقا في سير الشؤون الإنسانية. لرأى حوادث كثيرة تقع، وكوارث عديدة تنزل، دون أن تكون العناية الإلهية قد شاءت وقفها عن طريق السماح للناس بأخذ احتياطاتهم منها. ولما كان هذا القول ينطبق تمام الانطباق على رومة التي عرف عنها اشتهارها بالفضيلة والتمسك بأهداب الدين والسلوك الصحيح. فليس من الغريب أبدا أن ينطبق وبصورة أكثر تكرارا على المدن والمقاطعات التي تفتقر إلى المزايا التي تميّزت بها رومة".[1] إلاّ أنّ هذا لا يبرر عدم القدرة على مواجهتها والتصدي لها سوآءا قبل وقوعها أو بعد ذلك. وهو بهذا يرفض الزّعم الذي يعتقد أن تاريخ الإنسانية يسير بطريقة حتميّة بحيث يكون الرب والحظ هما المسيطران على أفعال الإنسان، وبالتّالي لا مجال لأي حيطة في مقاومة هذه الأحداث والحد من سلطتها وتأثيرها أو منع وقوعها.

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 557.

إنّ هذا الرأي في نظر **ماكيافيللي** لا يمكن أن يبرر بأي سبب من الأسباب فالتاريخ يناقضه والواقع يكذبه والتجربة تفنده حيث يقول :"لكن ولكوني لا أستطيع أن أتقبل فكرة أن يصبح فكرنا الحر منعدما. فإني أتصور أنّه يمكن أن يكون الحظ يهيمن حقيقة على نصف أعمالنا، ولكنّه يترك لنا النصف الآخر تقريبا لنتحكم فيه. إني أشبه الحظ بالنهر الجارف الذي إذا فاض أغرق السهول واقتلع الأشجار والبناء وجرف التربة، وحوّلها لمكان آخر، وكل شيء يفر أمام دماره ويستكين لثورته ولا شيء يمكن أن يوقفه. ومع ذلك ومهما كان الرعب الذي يثيره، فإن الرجال لا يتركون عند هدوء العاصفة، البحث عن إمكانية تأمين أنفسهم منه بواسطة الحواجز والطرق والأشغال الأخرى التي تجعل المياه، في حال حدوث فيضانات جديدة، محصورة في قناة ولا يمكن لها أن تنتشر بكل حرية أو أن تسبب دمارا كبيرا".[1]

ومن خلال هذا النص يطمح **ماكيافيللي** إلى تبيان أنّه إذا ما توافرت الإرادة والفطنة والذكاء والحكمة الكافية في الرجال فإن سلطان هذه الحوادث والنوازل يمكن مجابهتها والتقليل من تأثيرها. وما تقديم **ماكيافيللي** لهذا المثال إلاّ من أجل تبيان حقيقة مهمة مفادها أنّ الدوّل في تطورها ونموها وسقوطها وانحلالها لا يعود إلاّ لذلك الصراع القائم بين عاملي "الفضيلة" و"الحظ"، حيث أنّه كلما اتّسعت سلطة الفضيلة فإن سلطة الحظ تذوي وتضعف وبالتالي يتحقق نمو الدولة وتطورها، أمّا إذا ضاقت دائرة الفضيلة فإنّ سلطة الحظ تتسع مما يؤدي إلى ضعف الدول وانهيارها.

إلاّ أن ما ينبغي الإشارة إليه وعدم الإغفال عنه أنّ الحظ ليس دائما في سير معاكس لنمو وتطور الدول. حيث أنّه وباعتراف **ماكيافيللي** كثيرا ما يبتسم الحظ للعديد من الدول فيساهم في رفعتها خاصة إذا ما صادف في طريقه رجالا أكفّاء فيحققون من خلاله العديد من النجاحات وفي هذا الصدد يقول :"يحسن الحظ وضع خططه وترتيبها إذ عندما يريد شخصا لتولي القيادة في القيام بجلائل الأعمال يختار رجلا يمتاز بالحيوية المتدفقة والفضيلة

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق.ص154.

الفائقة للقيام بهذه المهمة، فيغتنم الفرصة المتاحة له بالنجاح".[1] وهكذا عندما تميز الرومان بالفضيلة كان الحظ يستكين لهم ويبتسم في وجوههم فحققوا من خلاله انتصارات عظيمة. لكن هذا لا يعني أن الحظ يبتسم في وجه الأقوياء فقط، بل قد يحالف الكثير من الضعفاء مثلما كان عليه البنادقة في نظر **ماكيافيللي** حيث حققوا عن طريقه الكثير من الاستقرار رغم أنهم لم يتوافروا على الفضيلة. لكن وبما أنّ الأوضاع لا يمكن أن تبقى على حالها لأنّ الحظ في تغير وتبدل مستمر. فالحكومات والدول التي تعتمد على الحظ لا على الفضيلة سرعان ما يلحق بها الدمار، إذ أنّه وبمجرد أن يعاندها الحظ فلا يجد أي فضيلة بإمكانها مقاومته فإنه سرعان ما يبرز عضلاته. وفي هذا الصدد يقول **ماكيافيللي** :"إن الحظ في تغير مستمر، والرجال مصممون على إتباع الطريقة نفسها وهم سعداء طالما اتفقت تلك الطريقة مع الحظ، لكن بمجرد توقف هذا التوافق، فإنّهم يصبحون تعساء".[2]

إلاّ أنّ الأمر على خلاف ذلك في الدول التي لا تعتمد إلاّ على ما في تنظيماتها ودستورها من فضيلة، فهي سعيدة عندما يكون الحظ إلى جانبها. أمّا إذا تبدل الحظ عنها فإن فضيلتها تمكنها من الصمود في وجهه. وهذا إيمانا من **ماكيافيللي** أنّ الرجال العظام والدول القوية بوسعها أن تبقى كذلك رغم أنّ الحظ يرفعهم حينا ويخفضهم حينا إلاّ أنّهم يضلون ثابتين دائما في عقلهم بحيث في وسع كل إنسان أن يرى أن الحظ لا يملك أي سيطرة عليهم.[3]

هكذا نستخلص مع **ماكيافيللي** أنّ الإنسان ليس خاضعا لمنطق "الحظ" كما يجري الاعتقاد، بل كل ما في الأمر أنه وعندما يترك الإنسان مصيره للحظ فإنه يستهزئ به ويجعله ألعوبة بين يديه فيخفضه مرة ويرفعه أخرى. إنّ الحظ يتدخل كثيرا في سير الشؤون الإنسانية لكن إذا عرف الناس كيف يأخذون بعين الاعتبار الدهاء والحكمة التي يتوفر عليها

---

[1]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 559.

[2]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق. ص 157.

[3]) ماكيافيللي، **ا لمطارحات**، مصدر سابق، ص 417.

بعضهم، بحيث يغيرون من طبيعتهم وخصائصهم بحسب ما يواجهون من عوائق فإن بوسع الإنسان أن يكون إلى حد كبير هو الفاعل والمسيّر لحركة التاريخ لأنّ هذا التاريخ في الأخير هو تاريخه.

وإن كان **ماكيافيللي** يعترف بصعوبة هذه المأمورية إلاّ أنّه يؤكد أنّه إذا ما نجح الأمراء والحكام في تحقيق ذلك فلن يجدوا مبررا للقول بأن الحظ خانهم وفي هذا يقول :"لا وجود لأيّ إنسان يتمتع بحكمة دائمة تساعده على التكيف مع كل التغيرات على خير وجه. ولا يستطيع بعض الناس معرفة التصرف على نحو يتعارض مع ميولهم، ولا يستطيع البعض الآخر إقناع نفسه بترك اتجاه في الحياة سبق له دائما النجاح فيه، ومن ثمّة يعجز بوجه عام من اتصف بالهدوء والحذر عن معرفة كيف يقوم بدوره في المواقف التي تتطلب القوة والسرعة في البت. وبذلك تترك الأمور بغير حسم. أمّا من كان قادرا على تغيير سلوكه تبعا للمواقف. فإنّه لن يرى مبررا للشكوى من الحظ والقول بأنه خانه".[1]

وهكذا فإنّ ما آلت إليه ايطاليا حسب **ماكيافيللي** ليس قدرا محتوما. كما أنّ الازدهار والعظمة التي وصلت إليها روما قديما لا يعود لنفس السبب. وكما أنّ الإمبراطورية الرومانية انتهت إلى السقوط بعد كل سنين العظمة تلك، فإنه بمثل ذلك إيطاليا قادرة على النهوض بعد سقوطها. يكفي فقط أن تستفيد من التاريخ وتستخلص منه العبر والدروس التي ثبتت نجاعتها.

وبناءا على هذا نجد **ماكيافيللي** يوجه اللّوم إلى الحكام والأمراء في عصره والذين أضاعوا دولهم بعد حيازة طويلة. إذ يرى أنّ السبب في ذلك يعود لعدم كفايتهم وحكمتهم. إذ لو فكروا أيام السلم والاستقرار في أن الأمور يمكن أن تنقلب عليهم يوما كما كان يفعل الرومان قديما، إذ كانوا يتصرفون كأمراء ناضجين ويفكرون في الفوضى الحاضرة وفيما ستأتي به الأيام القادمة من أجل إيجاد العلاج المناسب لها. لما أضاعوا دولهم بعد كل تلك

[1]) ستيفن ديلو، مرجع سابق، ص218.

الحيازة وفي هذا الصدد يقول :"لا يلومّن إذن أمراؤنا الذين فقدوا دولهم بعد حيازة طويلة الحظ، بل عليهم أن يلوموا جبنهم الذاتي إنهم لم يفكروا أيّام الاستقرار في أنّ الأمور يمكن أن تنقلب يوما عليهم. كما انقلبت على عامّة الأفراد الذين لم يقلقوا أنفسهم بالتفكير في العاصفة قبل مجيئها.[1]

وبعد أن يقدم **ماكيافيللى** هذا التحليل يصل إلى نتيجة أساسية وهي أنّ الحفاظ على الدولة خاصة إذا كانت تعيش حالة من الفساد والانحلال كما هي عليه إيطاليا فإن الأمر يتطلب ظهور شخص بارع يتميز بحكمة كبيرة وذكاء ثاقب يمكنه من توقع المشكلات قبل وقوعها فيعمل على القضاء قبل استفحالها. وهذا لا يتأتى حسب **ماكيافيللي** إلاّ للقليل من الأفراد، حيث يقول :"وهذا ما يحدث في كل أروقة الدولة، عندما يتنبأ بالخطر قبل حدوثه وهو ما يتأتّى إلاّ للأفراد الموهوبين الذين يتمتعون بكفاءة كبيرة ويستطيعون علاجه قبل استفحاله".[2]

هذا الرجل الفاضل يعرف الوسائل اللاّزمة والضرورية لكل حالة من الحالات التي يواجهها، يكون على استعداد لأن يغيّر من طبيعته إذا اقتضت الضرورة فيستعمل اللّين أحيانا والقسوة والعنف أحايين أخرى بحسب مقتضيات المشاكل التي تواجهه وطبيعة الأفراد الذين يحكمهم، عليه أن يكون مثل "برنيوس" الذي كان قادرا على تغيير مظهره من حين لآخر.[3]

رجل دولة لا يهمل فن الحرب في أو قات السلم كما في أو قات الحرب، بل لابد أن تكون مهنته الأولى وذلك لأنها تتيح له الفرصة لتوقع الأخطار القادمة، رجل مثل "فيلوبومان" قائد الاشيين الذي كان دائم التفكير في الحرب، حيث كان لا يتوانى أبدا عن

---

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 152.

[2]) المصدر نفسه، ص16.

[3]) ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 217.

التوقف باستمرار أثناء جولاته مع أصدقائه لدراسة كل فرضية من الفرضيات الحربية التي يمكن أن تواجهه أثناء الحرب لأخذ احتياطاته اللاّزمة إذا ما وضعت الحرب أو زارها.[1]

لهذا السبب نجد **ماكيافيللي** في كتابه الأمير يحث الأمير على ضرورة معرفة بلاده بما تشمله من تضاريس وجبال وأودية وهذا من أجل أن يكتسب الأمير نظرة شاملة حول طبيعة بلاده تمكنه من تهيئة سبل الدفاع اللازمة، إضافة إلى هذا فإن **ماكيافيللي** لا يتوانى عن تقديم النصائح للأمير بأن لا يهمل مهنة الصيد لأنها تمكّنه من أن يقيم حسابا للوضعيات المختلفة التى يمكن أن تصادف الأمير في حربه وبالتالي يضع لها حلولا قبل أن تضع الحرب أوزارها، لأنه إذا قامت الحرب فلن يكون هناك متسع من الوقت للبحث في ذلك.

رجل دولة يكون من الكفاية التي تمكنه من إعداد جيش يكون من صنيعه هو، لأنه وبدون هذا النوع من الجيش لن يتمكن من تحقيق الانتصارات مثلما فعله "بيلوبيداس وايبامينوداس" حيث وجدا نفسيهما في مدينة ألفت العبودية وبين شعب ضعيف وخائر ومع ذلك تمكنا بواسطة فضيلتهما من عدم التردد في إعداد الشعب عسكريا وحمله على امتشاق السلاح.[2] و**ماكيافيللي** هنا يلوم الأمراء الذين تناوبوا على حكم ايطاليا والذين اعتمدوا في تشكيل قواتهم على جنود المرتزقة التي جرت ايطاليا إلى الهلاك، والأمر لا يتعلق حسب **ماكيافيللي** على ضعف جنود المرتزقة فقط بل حتى قادة الجيوش لم يكونوا يوما من الفضيلة التي تمكنهم من تنظيم جيوشهم وتجهيزها بل كل ما كانوا يركنون إليه هو الراحة بحيث لا يقومون بأي عمل فيه عناء أو خطر فلا يتقاتلون بينهم ولا تنشب معارك، كما أنّهم لم يقوموا بأي هجوم ليلى إذا ما حاصروا مكانا معينا، ولم يقيموا حول معسكراتهم خنادق وسياجات ممّا أدّى إلى وقوع ايطاليا في ظل حكمهم فريسة سهلة للأعداء من الدول المجاورة.

---

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 90.

[2])ماكيافيللي، **المطارحات**، مصدر سابق، ص 248.

هذا ما يجب أن يحيطه الأمير في نظر **ماكيافيللي**، وما يجب على الأمير أن يفعله وأن يتحصن به في أوقات السلم وقاية من حوادث سوء الطالع عوضا عن بقائه عاطلا وفي هذا الصدد يقول: "بهذه الطريقة يكون على أتّم الاستعداد إذا تحتّم الأمر لمقاومة الضربات".[1]

بمثل هذه الفضائل فقط استطاع الرومان قديما التغلب على ضربات الحظ، والحفاظ على إمبراطورتيهم وإذا ما أرادت أي دولة أن تحافظ على نفسها فما عليها إلاّ أن تسلك نفس الطريق، وهكذا يمكن القول أنّه إذا ما عزّز أي أمير أو حاكم نفسه بقوانين جيّدة وأسلحة جيّدة فإنهم لا محالة سوف يحققون الاستقرار داخل أوطانهم ويحصنوا دولهم من ضربات الحظ، وبذلك يكسبون قلوب شعبهم وتتحقق الغاية المنشودة.

بناءا على ما سبق نجد أن **ماكيافيللي** يعير أهمية كبيرة لوجود الرجل الفاضل أكثر من إيلائه الأهمية لوجود الأسلحة القوية، إيمانا منه أنه حيث يوجد الرجل الفاضل يمكن أن توجد الأسلحة القوية. لأنّ الرجل الفاضل مثل الطبيب يمكن أن يتنبأ بالفوضى مبكرا فيعمل على إخمادها في وقتها المناسب، كما يكتشف الطبيب المرض وهو في بدايته فيتمكن من علاجه، وكما أنّ الأدوية والوسائل التي يتسلح بها الطبيب تصبح غير ذات أهمية كبيرة إذا ما تفشى المرض، فكذلك الأمر يتجلى في عدم كفاية الأسلحة القوية إذا ما عمت الفوضى والاضطرابات. إلاّ أنّ هذا لا يعني عدم أهمية الأسلحة فهي ذات مكانة كبيرة في حياة الدول حسب **ماكيافيللي** حيث أو رد لها عدة فصول سواء في كتابه "الأمير" أو "المطارحات" لكن المغزى من ذلك هو إيمانه بأنه حيثما يوجد الرجل الفاضل فإن الأسلحة القويّة لا محالة سوف تكون. وإن كان **ماكيافيللي** يعتقد أن مثل هؤلاء الرجال قليل، إلا أننّا كثيرا ما نجده يمتدح قيصر "بورجيا" حيث يرى فيه الشخص الذي يستطيع بواسطة ما اشتمل عليه من

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق. ص 92.

فضائل من إقامة دولة قومية في فلورنسا وإن ساعفه القليل من الحظ يستطيع توحيد إيطاليا كلها.[1]

وإذا أردنا أن نصل إلى نتيجة من خلال ما سبق لا يمكننا إلا أن نقول مع **ماكيافيللي** بأن الفضيلة هي وحدها السبيل لتأسيس دولة بعد انهيارها أو الحفاظ عليها بعد تأسيسها أو تحقيق قوتها بعد الحفاظ عليها. هذا ما أثبته التاريخ وأكدته التجارب وما تحقيق روما لعضمتها قديما لا يمكن أن يعود في حقيقة الأمر إلا لنفس السبب، وما الضعف والمهانة التي آلت إليها ايطاليا ما هو ناجم إلا عن غياب السبب الانف الذكر.

[1]) ماكيافيللي، **الأمير**، تر. فاروق سعد، مصدر سابق، ص24.

4-في أثر ماكيافيللي في الفكر السياسي من بعده

عرفت أوروبا مع بدايات القرن الخامس حتى نهاية القرن الخامس عشر صراعات عديدة مما أدى إلى دخولها مرحلة من أحلك مراحل تاريخها، حيث بدا هذا الصراع عندما حدثت تغييرات داخل الكنيسة جعلتها تطالب بإقامة دولة دينية مسيحية في القرن الحادي عشر ميلادي، حيث طالب رجال الكنيسة بوجوب استقلال الكنيسة عن رقابة السياسيين ووجوب الاعتراف بسيادة البابا في كل شؤون الكنيسة ليتحول هذا الصراع مع مرور الوقت إلى صراع ثنائي بين مشروعية وأحقية من يتولى زمام الأمور في أوروبا بين سلطة دينية روحية ممثلة في رجال الكنيسة تربعت على عرش الدولة الأوروبية تسوسها كما تشاء زاعمين أنها هذه السلطة إلهية، وبذلك فليس لأحد الحق التدخل في أمورها لا من قريب ولا من بعيد، ذلك أنها قضية خاصة بهم وسلطة زمنية والتي طالبت أن تستقل أمور السياسة عن الكنيسة وهذا لأنها قضية دنيوية وظيفتها خدمة الأفراد في هذه الأرض مما يوجب أن تكون سلطة زمانية لا سلطة روحية[1]،

هذا التغير الذي ساد أوروبا تبعه ظهور العديد من الحركات المطالبة بالاستقلال عن سلطة الكنيسة ورجالها نتيجة للفساد الكبير الذي عرفته مؤسسات الكنيسة، والتي قادت أوروبا إلى الضعف والمهانة. حيث أنها انحرفت عن تعاليم المسيح الحقيقية مما أدى إلى انتشار الرشاوى وقضايا الفساد.

هذا الواقع المزرى الذي آلت إليه أوروبا دفع العديد من المفكرين إلى تبنى حركات إصلاحية انتقدت سلطة الكنيسة وسياستها المتبعة، فالفساد لم يعد على مستوى الدين فقط بل امتد ليشمل الجانب السياسي والذي كان تحت تبعية الكنيسة.

[1]) جورج سباين، مرجع سابق، ص37.

لقد كان **ماكيافيللي** من أبرز وأهم المفكرين الذين وجهوا سهام نقدهم للكنيسة ورجالها، حيث رأى فيهم السبب الرئيسي لما آلت إليه ايطاليا من ضعف وهوان، فلم يتوانى أبدا عن مهاجمتهم وتبيان فسادهم الذي أدى بإيطاليا لأن تقع ذليلة مهانة في يد الأعداء من الدول الأخرى بعد الانقسام الذي وصلت إليه، والذي كان سببه المباشر سلطة الكنيسة ورجالها، وذلك لأن البابا في نظر **ماكيافيللي** بدلا من أن يبقى حكما بين المسيحيين في أوروبا بأكملها جعل من نفسه حكما يسعى إلى السلطة والنفوذ، مثله مثل أي حاكم آخر مما أدى إلى تردى الأوضاع.

لقد ناضل **ماكيافيللي** من خلال تجنيد قلمه لغاية أساسية وهي تقليص هيمنة الكنيسة حيث توصل إلى قناعة مفادها أن وجود دولة دينية في قلب ايطاليا عقبة في طريق وحدتها السياسية[1].

وهذا ما جعل الكنيسة تشن عليه حملة شرسة حيث منعت كتبه وحرمتها وألصقت له العديد من التهم، لكن هذا لم يمنع **ماكيافيللي** من مواجهتها ومجابهتها من خلال تبيان عيوبها، وهذا من خلال تأكيده على ضرورة أن تكون السلطة زمنية **فمكيافيللي** لم يتوانى أبدا في مواجهة البابوية وسلطتها مدافعا عن فكرة إقامة دولة وطنية قومية دنيوية لا دينية وهذا كله لغرض انتشال ايطاليا من الضياع الذي غرقت فيه بسبب سلطة الكنيسة التي كانت تسعى إلى خدمة مصالحها الشخصية لا إلى خدمة المصلحة العليا المتمثلة في مصلحة الوطن الأم، لقد كان **لمكيافيللي** إذن أهمية ودور كبيرين من خلال محاولته محاربة سلطة الكنيسة.

هذه الآراء التي انتهى إليها **ماكيافيللي** لقيت تأثيرا كبيرا في العديد من المفكرين والفلاسفة من أمثال لوك، روسو، فولتير، كانط ... فعلى سبيل المثال فقد قدم فلاسفة العقد

[1]) فاروق سعد، مرجع سابق، ص24.

الاجتماعي تصور لحالة طبيعية سابقة على الحالة المدنية، ورغم اختلافهم في تحديد خصائصها حينما اعتبرها هوبز حالة حرب الكل ضد الكل حيث يجد الأفراد أنفسهم حسبه في هذه الحالة في وضع لا يمكنهم فيه أبدا أن يتمهلوا أو يتمتعوا بشيء قادرين على امتلاكه بما لديهم من قوة دون أن يلتفتوا أو يطمئنوا من الأفراد الذين هم بجوارهم إذا ما كانوا لن يلحقوا بهم الأذى[1] أو كما اعتبرها لوك على أنها حالة عقلانية والأفراد قادرون فيها على تحديد القيود المعقولة التي من شانها أن تحكم سلوك الأفراد، هذه الحالة حسب لوك هي حالة حرية كاملة يتعين فيها على الأفراد أن ينظموا أفعالهم ويتصرفوا في ممتلكاتهم بالطريقة التي يرونها مناسبة[2]

أما بالنسبة لروسو فلقد رأى أن الناس في حالة الطبيعة ليس دافعهم الأساسي البحث عن القوة كما ذهب إليه هوبز، كما أنهم ليسوا عقلانيين كما هو الأمر عند لوك، بل إن هناك خاصيتين أساسيتين أو حافزين أساسين مزودين بهما (حفظ البقاء، وعدم الإضرار بالآخر [3].

إذا كانت هذا هو تصور الحالة الطبيعية عند فلاسفة العقد الاجتماعي فإن الواجب يقتضى حسبهم من أجل انتظام الحياة الإنسانية وجوب الانتقال إلى عقد اجتماعي وهذا العقد وان اختلفوا في تحديده حسب تصور كل واحد منهم للحالة الطبيعة، إلا انه يبقى حسبهم شرطا لازما وضروريا من أجل تحقيق الغاية المرجوة من الاجتماع الإنساني.

وليس هذا ما نريد أن نبينه بل الأهم من ذلك هو أن نبين أن تقديم فلاسفة العقد الاجتماعي لتصور الحالة الطبيعية السابقة للحالة المدنية ما هو إلا تأكيد على الطابع الوضعي للدولة وهذا باعتبارها صرحا بشريا لا علاقة له بالاعتبارات الدينية هدفها وغايتها

---

[1]) ستيفن ديلو، مرجع سابق، ص 175.

[2]) المرجع نفسه، ص 197.

[3]) المرجع نفسه'، ص222.

خدمة أفراد الشعب، هي إذن وسيلة بشرية أرضية تأسست على اتفاق البشر وهي بذلك تقدم نقدا ضمنا للنظام السياسي الثيوقراطي المستند إلى الكنيسة والحق الإلهي، كما أنها دعوة للتخلي عن البحث في النظام الفاضل المستحيل، وهذه في مجملها الأفكار التي دافع عنها **ماكيافيللي** والتي استفاد منها فلاسفة العقد الاجتماعي من أجل وضع الخطوط العامة لنظريتهم السياسية.

ويعد هوبز من أبرز الفلاسفة الذين تأثروا بالنظرية السياسية التي طرحها **ماكيافيللي**، ولقد قدم هوبز فلسفته السياسية بصورة موضوعية في ثلاث كتب أساسية هي "مبادئ القانون" (1640)، "في المواطن"(1642)، "التنين" (1631)، محاولا إقامة الفلسفة السياسية على أساس علمي وهذه هي نفسها الطريقة التي دافع عنها **ماكيافيللي** أي إمكانية قيام علم السياسة، لذلك فتأثير ماكيافيللي على هوبز كبير حيث أخذ هوبز عن **ماكيافيللي** الفكرة القائلة بإخفاق التراث القديم كله في بحثه عن الحقيقة حيث عجز على أن يقود الناس نحو السلام.

لذلك يمكن القول أن **ماكيافيللي** أعد ومهد الطريق لهوبز فيما بعد من خلال تبيانه لإخفاق الفلاسفة الكلاسيكيين، الذين أقاموا مذاهبهم السياسية على اعتباراتهم لطموحات الإنسان العليا، وحياة الفضيلة والسعادة ناسجين بذلك قوانين خيالية لا وجود لها إلا في الأذهان متناسين بذلك ما هم عليه الناس في الواقع وهنا يكمن تأثير واقعية **ماكيافيللي** على فكر هوبز السياسي وهذا من خلال تأكيد هوبز على ضرورة الانطلاق من دراسة الطبيعة البشرية لتقديم المعادل السياسي الذي ينبغي أن يحكم هذه المعادلة[1] وهي عينها الفكرة التي أشار إليها ماكيافيللي كما أشرنا من قبل وفى هذا الصدد يؤكد هوبز على عدم أهمية المسالة التاريخية فيما تعلق بالحالة الطبيعية، حيث يرى أن حالة الطبيعة مستمدة من

[1]) ليو شتراوس، جوزيف كوربسي، مرجع سابق،ص573.574.

انفعالات الناس، والغاية منها هي اكتشاف وتوضيح مشكلة الميول الطبيعية للإنسان والتي يجب معرفتها من أجل تكوين فكرة عن النوع الصحيح والملائم من النظام السياسي[1].

لقد توصل هوبز إلى أن حالة الطبيعة في جوهرها ما هي إلا حالة تنافس دائم وانعدام تام للثقة بين الأفراد، إذ هي حالة حرب دائمة ومستمرة ولا مجال فيها للأفراد لوقت من الدعة والاطمئنان، في هذه الحالة "يعيش الأفراد دون أمن أو أمان غير ما تقدمه لهم قوتهم الخاصة ... "[2]

وبناءا على هذا التصور يتضح جليا أن تصور هوبز للطبيعة البشرية في حالة الطبيعة، يقترب كثيرا من التصور الذي أعطاه **ماكيافيللي**، عندما اعتبر أن من أهم خصائصها الأنانية المفرطة التي أدت بدورها إلى فساد العلاقات بين الأفراد حيث أصبحت علاقات مبنية على أساس مصالح ذاتية حالما تعارضت هاته المصالح فإن النتيجة لا محالة حدوث صراعات نتيجة تصادم المصالح الشخصية، مما أدى ويؤدى إلى حالة من الفوضى والاضطراب سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الدولة بشكل عام.

وبناءا على هذا التصور الذي أعطاه هوبز للحالة الطبيعية فقد أكد على غرار **ماكيافيللي** وجوب خلق نوع من السلطة المطلقة، وهذا بوصفها ضرورة لازمة ولا غنى عنها وما يبرر مشروعيتها هو الحالة التي هم عليها الأفراد والتي حتمت قيام هذا النوع من السلطة من أجل حفظ الصالح العام، وحماية الأفراد من بعضهم البعض، لهذا أكد هوبز على ضرورة إقامة عقد اجتماعي يلتزم من خلاله الأفراد بالتنازل عن السلطة التي يملكونها لصالح طرف ثالث خارج عن التعاقد القائم بين الأفراد تكون وظيفته حماية الأفراد والحفاظ على حياتهم مما يمكن أن يصيبهم من أولئك الأفراد الذين لا يمكن الحصول على السلام من عندهم. ولتحقيق السلم ينبغي أولا وقبل كل شيء أن تكون لكل فرد الرغبة في أن يجرد

---

[1]) المرجع نفسه، ص577.

[2]) المرجع نفسه، ص579.

نفسه من حقه في كل الأشياء، عندما تكون للآخرين الرغبة نفسها، كما ينبغي أن يقتنع ويرضى كل واحد بمقدار الحرية شأنه شأن كل الأفراد الآخرين في إطار ما يسمى بالعقد الاجتماعي عن طريق هذا الأخير يلتزم كل واحد مع الآخرين أن لا يقاوم أوامر ذلك الشخص الذي هو في النهاية صاحب السلطة المطلقة[1].

هكذا يؤكد هوبز أنه لا مجال لترسيخ فضيلة السلم دون منح الأفراد السلطة التي يملكونها على أنفسهم في يد رجل واحد أو مجلس واحد له من القوة الكافية التي تمكنه من التحكم في الأفراد لتحقيق السلم وحماية المجتمع من الأعداء، وهكذا فان السلطة المطلقة التي تحدث عنها هوبز ما هي إلا أداة أو وسيلة تشتغل على غاية أساسية وهى حماية الأفراد في مجموعهم، وبالتالي فالسلطة المطلقة التي تحدث عنها هوبز هي نفسها التي تحدث عنها **ماكيافيللي** ذلك أنها ليست غاية في ذاتها بل هي مجرد وسيلة اقتضتها ضرورات الظروف والأوضاع، وبذلك أصبحت الوسيلة الوحيدة المتاحة من أجل الحفاظ على الدولة عند **ماكيافيللي**، وحماية الأفراد من شر بعضهم البعض عند هوبز.

رغم تأكيد **ماكيافيللي** على أهمية السلطة الزمنية المطلقة إلا أن هذا لا يعنى إهماله للجانب الأخر أي السلطة الروحية أو السلطة الدينية فهو يذهب مذهب **ماكيافيللي** عندما يؤكد على ضرورة وأهمية الدين بالنسبة للدولة، إذ أن التمييز بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية في نظره ليس له أي معنى، إذ وعلى الرغم من تأكيده على وجوب سمو وتفوق السلطة المدنية على السلطة الدينية، إلا أنه لا ينكر أبدا أهمية الدين، بل يشير إلى أن هذا المجتمع المدني الذي يسعى إلى تكوينه يجب أن يكون فيه الدين خاضعا للسيطرة السلطة الزمنية[2]، وهى نفسها الفكرة التي أشار إليها **ماكيافيللي** عند حديثه عن وجوب استغلال

---

[1]) المرجع نفسه، ص581.582.

[2]) ستيفن ديلو، مرجع سابق، ص189.

عامل الدين لصالح خدمة الدولة حيث أن الدول التي تلغى عامل الدين تكون أكثر تعرضا للخطر والانهيار من غيرها من الدول.

ولم يقف تأثير **ماكيافيللي** فى الفكر السياسي من بعده على هوبز، بل امتد ليشمل فلسفة هيغل السياسية، ولقد كان هيغل(**1830.1770 hegel**) من أشد المعجبين بالطرح السياسي الماكيافيللي، لذلك فقد كانت لأفكار هيغل السياسية جذور ممتدة تعود إلى الفكر السياسي الذي طرحه **ماكيافيللي** في القرن الخامس عشر ولعل أهم ما أخذه هيغل عن **ماكيافيللي** هو الفكرة القائلة بالطابع المطلق للدولة وذلك بوصفها الكل الأخلاقي والشرط الضروري الذي يحقق فيه الأفراد فرديتهم، حينما تحدث عن الكيفية أو اللحظات التي تتشكل من خلالها الدولة وهذا بوصفها سبق منطقي لمفهومي الأسرة والمجتمع المدني ذلك أن الدولة في نظر هيغل تمثل لحظة الفردية على خلاف الأسرة والمجتمع المدني اللذان يمثلان "الكلية" "والجزئية" على التوالي، فالأسرة تمثل حسب هيغل الوجه الأول المباشر للحياة الأخلاقية، من حيث أنها أولى المؤسسات الاجتماعية التي تعتمد عليها باقي المؤسسات طالما أنه لا يمكن أن يكون هناك مجتمع ولا دولة بدونها[1].

بعد أن يقدم هيغل تحليلا للحظات التي تتكون وتتم بها الأسرة ينتقل إلى الحديث عن المجتمع المدني الذي يمثل لحظة الجزئية، والمجتمع المدني ينشأ منطقيا حسب هيغل من تفكك الأسرة حيث يستقل الأولاد بأنفسهم ويكونون أسرا جديدة مما ينشأ عن اجتماع تلك الأسر ما يسمى بالمجتمع المدني ويفيد معنى "الجزئية" الذي يميز المجتمع المدني حسب هيغل أن هؤلاء الأفراد والذين كانوا يعيشون في إطار الكلية أي الأسرة حيث كانوا يعملون من أجلها، أذا انخرطوا في المجتمع المدني فإنهم يرتبطون خارجيا بوصفهم ذرات اجتماعية مستقلة يعامل كل واحد منهم الآخر على انه وسيلة وفقط، ومن ثمة يتوقف وجود كل واحد

[1]) هيغل، **أصول فلسفة الحق**، ترجمة وتعليق وتقديم، إمام عبد الفتاح إمام(ط.3،بيروت:دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع،2007)،ص46.

من الأفراد فقط على الآخرين، وهذا الوضع أي الاعتماد على الأشخاص الآخرين هو جوهر ما يسميه هيغل "المجتمع المدني" وهكذا تختفي الكلية الممثلة في الأسرة لتحل محلها الجزئية[1]

من خلال هذا التحليل يخلص هيغل إلى أن الدولة هي مركب الأسرة والمجتمع المدني وهي تمامها، حيث تصل الفكرة الأخلاقية من خلالها إلى تحققها الفعلي، فإذا كانت الأسرة حسب هيغل قد أبرزت عنصرا من عناصر الفكرة أي (الكلية) كما أبرز المجتمع المدني عنصرا آخر هو (الجزئية)، فإن الدولة تبرز العنصر الثالث ألا وهو عنصر (الفردية) الذي هو مركب الكلية والجزئية.

ومن ثمة فالدولة ليست إلا الفرد نفسه وقد تموضع عن طريق حذف السمات العارضة فيه من خلال التركيز على ما هو كلي فيه ومشترك ومن ثم سوف تبدو علاقة الفرد بالدولة علاقة مزدوجة، فالفرد سوف يشعر أن الدولة شيء خارجي عنه وقد يلزمه، ذلك أن الدولة حسب هيغل لابد أن تعلو على جميع المصالح الذاتية والمنافع الخاصة وهذا لأنها الحكم الأعلى ولها الحق الأعلى، وما تعارضه الدولة من السلوكات التي قد تبدر من الأفراد هو فقط ما يتعارض مع ما هو كلي ومشترك، أي أن يكون مصدره أهواء الفرد ونزواته وهكذا تصبح الدولة حسب هيغل هي غاية الغايات وغاية للتاريخ التي تتحقق فيها الحرية الحقة، وليست كما اعتقد فلاسفة العقد الاجتماعي حين اعتبروها مجرد وسيلة لخدمة الأفراد وحماية ممتلكاتهم[2].

إلى جانب ما سبق هناك نقطة يشترك فيها هيغل مع **ماكيافيللي** حينما تحدث عن حدود سلطة الحاكم، فعلى الرغم من تأكيده عل ضرورة أن يكون الملك هو المصدر المطلق للأعمال التنفيذية وصاحب القرار، إلا أن هذا لا ينبغي أن يفهم منه أن هيغل يعطى للملك

[1]) المصدر نفسه، ص50.

[2]) المصدر نفسه، ص54.

سلطة مطلقة أو أنه يؤيد الحاكم المستبد، لأنه لو صح ذلك وكان الملك يحكم على هواه ويفعل ما يشاء ويمارس أعمال تعسفية حيث يشرع ويقرر كما يريد لتعارض هذا الأمر مع سير الفكرة وما تحتويه من عناصر(السلطة التشريعية من ناحية، والسلطة التنفيذية من ناحية أخرى)، إن الملك حسب هيغل مقيد بالقرارات العينية لمستشاريه[1].

كما يبدو تأثير **ماكيافيللي** على هيغل واضحا حينما تحدث هيغل عن القانون الدولي أي في علاقات الدول فيما بينها أو ما عرفناه عند ماكيافيللي بالسياسة الخارجية وفى هذا الصدد رأى هيغل أن كل دولة مستقلة وذات سيادة وبذلك فعلاقتها بغيرها من الدول لا تشبه أبدا العلاقة التي تربط الأفراد بالدولة ذلك انه يوجد في الدولة قانون قائم ومحاكم ترغم الأفراد على إتباع الصالح العام بحيث تحد من أهواء الفرد، في حين يغيب مثل هذا الأمر في علاقات الدول بعضها ببعض حيث لا توجد محاكم ولا قوانين ترغم الدول على تنفيذ الاتفاقيات والمعاهدات التي تعقد بينها ومن ثمة فان أي تحالف سوف يكون عرضيا ويستطيع أي طرف التنصل منه، وهذه الفكرة هي عينها الفكرة التي أشار إليها **ماكيافيللي** عندما أكد على عدم ضرورة احترام العهود والمواثيق المبرمة بين الدول إذا رأى الحاكم أو الأمير أنها تهدد أمنه وسلامته[2].

من خلال ما سبق لا يسعنا إلا القول أن المساعي الفكرية التي اشتغل عليها **ماكيافيللي** كانت ذات نتائج باهرة ، وليس أدل على ذلك من أن كتبه خاصة منها كتاب "الأمير" يدرس في جامعات العالم كافة، كما نه لا يوجد سياسي محترف أو رجل دولة لم يقرا هذا الكتاب بل إن معظمهم يحفضه عن ظهر قلب ولعل أكبر دليل على ذلك أنه كان محل دراسة واستخدام من العديد من الملوك والوزراء الذين اختلفوا في طبائعهم وأهدافهم من أمثال ريشيليو، وكريستينا ملكة السويد وفريديريك ملك بروسيا وبسمارك، وقد اتسعت هذه

---

[1]) المصدر نفسه، ص57.

[2]) المصدر نفسه، ص58.

القائمة في القرن العشرين اتساعا كبيرا لتشمل أولئك الذين ثاروا على أنظمة الحكم القديمة فقد اختاره موسوليني في أيام تمدرسه موضوعا لأطروحته في الدكتوراه، كما كان هتلر يضع كتاب "الأمير" على مقربة من سريره يقرا منه كل يوم قبل أن ينام ، وإلى جانب هذا فقد ذكر ماكس ليرنر في مقدمة كتابه "أحاديث" أن لينين وستالين أيضا تتلمذا على يد **ماكيافيللي**[1]

لقد حاول موسوليني إعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية قديما من خلال وطنه ايطاليا متبعا بذلك النصائح التي قدمها **ماكيافيللي** الواحدة تلوى الأخرى من خلال تركيزه على ضرورة سلطة الرجل الواحد ونشر الروح الوطنية والترويج لها من خلال وضع الدولة فوق كل اعتبار والتضحية في سبيلها ما أمكن وهذه هي السمات العامة التي وضعتها الفاشية منهجا وطريقا تحتذي وفي هذا الصدد ذكر موسوليني ممتدحا **ماكيافيللي** من خلال تعليق حول كتاب الامير قائلا "القضية هي: ماذا يبقى خالدا بعد أربعة قرون من الزمن ؟. هل يمكن أن تكون لنصائح **ماكيافيللي** أية نتائج مفيدة لرجال الحكم المحدثين؟ هل أن قيمة المذهب السياسي لكتاب "الأمير" هي وقف على العصر الذي كتب فيه، وبالتالي فهي قيمة محدودة بالضرورة وباطلة إلى حد ما؟ أو ليست شاملة وواقعية إلى حد ما وخاصة فعالة؟ إن رسالتي تجيب عن هذه الأسئلة وأؤكد أن مذهب **ماكيافيللي** حي اليوم بعد أربعة قرون والسبب انه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيرا كبيرا فان التغيرات في روح الأفراد والشعوب لم تتجل عميقة جد[2]

[1]) فاروق سعد مرجع سابق، ص19.18.

[2]) فاروق سعد، مرجع سابق، ص 6.

كما أن كتابات **ماكيافيللي** كانت مرجعيه هامة للعديد من المفكرين على المستوى النظري، إذ غدى كتابا مقروءا يدرسه المثاليون والمغامرون السياسيون على السواء في القرن العشرين عندما أصبحت الدولة القومية عرضة لفترة من عدم الاستقرار [1]

وفي هذا الصدد كتب **كريستيان غاوس** معلقا على كتاب "الأمير" يقول "علينا أن لا ندهش من رؤية المؤرخين الألمان في القرن التاسع عشر يبدون اهتماما خاصا **بماكيافيللي** إذ كانت المشكلة الرئيسية في ألمانيا مثلها مثل ايطاليا الحاجة إلى الوحدة القومية.[2] ولا ريب في أن "مينيكي" من أكثر المؤرخين الألمان تأثرا **بماكيافيللي** حيث وضع عنه دراسة تحليلية حول كتاب "الأمير" تستخدم كمقدمة لأحسن الطبعات الألمانية من الكتاب.

[1]) المرجع نفسه، ص23.

[2]) المرجع نفسه، ص 33.

خلاصة:

من خلال ما سبق يتضح أن للفضيلة دورا هاما في نظر **ماكيافيللي** في بناء الدول والمحافظة عليها. لذلك نجده يؤكد أن السبب الكامن وراء كل ما آلت إليه ايطاليا في عصره دون غيرها من الدول، لا يمكن إيعازه في حقيقة الأمر إلا لغياب عامل الفضيلة. وهو هنا يوجه سهام نقده اتجاه الكنيسة ورجالها إذ كانوا حسبه أبعد من أي كان عن الفضيلة المطلوبة توافرها في من هم على رأس الحكم ؛ الفضيلة التي تمجد وطن الآباء وتعلي من شأنه، إذ غابت عنهم فضيلة خدمة المصلحة العامة، بل إن جل ما كانوا يطمحون إليه هو تحقيق مآربهم الشخصية المتمثلة في الحفاظ على السلطة التي اكتسبوها خوفا عليها من الضياع. وبالتالي فقد ظلت إيطاليا في ظل حكمهم ذليلة مهانة وفريسة سهلة للأعداء من الدول المجاورة. فرجال الكنيسة حسب **ماكيافيللي** لم يتوفروا يوما على الشجاعة والحكمة الكافية التي تمكنهم من إعداد جيش وطني يكفل ويحمي ويصون حرمة الوطن. بل إن كل ما فعلوه هو الاعتماد على جيوش من المرتزقة فقادوا بذلك إيطاليا إلى الهلاك.

بناءا على هذا وانطلاقا من تحليله وفهمه للحوادث التي كانت تنتظم عن طريقها الأمور وتسير بها الأحداث قديما في الإمبراطورية الرومانية امن **ماكيافيللي** بأنه لا سبيل لبناء الدول والمحافظة عليها غير سبيل فضيلة خدمة المصحة العامة. لهذا الغرض أكد **ماكيافيللي** وجوب إسناد مناصب تسيير الدولة للأفراد الذين يظهرون شجاعة وكفاية نادرة تمكنهم من وضع قوانين جيدة وتكوين أسلحة قوية اعتمادا على فضيلة الأفراد الذين يشكلون الوطن الأم بحيث يضحون في سبيله بدمائهم وأرواحهم. وهذا إيمانا من **ماكيافيللي** بأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع من خلالها دولة مثل إيطاليا أو أي دولة أخرى وجدت نفسها في نفس الأوضاع الخروج من أزمتها، وتسطير تاريخ خاص بها حافل بالإنجازات مثلما كان عليه الحال في روما قديما.

خاتمـــــة

خاتمة:

عندما كتب **ماكيافيللي** مؤلفاته كان ينشد ويطمح إلى تحقيق غاية أساسية وهي البحث عن السبل الكفيلة من أجل توحيد القومية الايطالية وإعادتها لمكانتها بين الدول بعد أن تعرضت للانحلال والفساد ومزقتها الفتن والصراعات. ومن أجل تحقيق هذه الغاية عمد **ماكيافيللي** إلى تشخيص الأسباب الحقيقية والأساسية التي أدت إلى مثل هذا الوضع الذي آلت إليه ايطاليا.

إن تحليل الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاصره، جعله يدرك تمام الإدراك إن السبب الرئيسي الذي أدى إلى مثل هذا الوضع ما هو ناجم في الحقيقة إلا عن غياب الروح الوطنية التي تمجد الوطن وتعلي من شأنه عند الأفراد بحيث تضحى بأرواحها ودمائها وممتلكاتها. حيث أضحى الفساد هو السمة الأساسية لجميع الأفراد وجميع الطبقات حكاما ومحكومين فلم يكن هدفهم وهمهم إلا تحقيق مصالحهم الشخصية الضيقة ولو على حساب مصلحة الآخرين أو حتى مصلحة الوطن، وهذا ما خلف العديد من الانقسامات التي أدت بدورها إلى إضعاف الدولة مما خلق حالة من الفوضى والاضطرابات التي هيأت الظروف المناسبة لأن تمسي إيطاليا ضعيفة ذليلة.

يعتقد **ماكيافيللي** أن السبب الرئيسي وراء ذلك الوضع المتردي الذي كانت تعيشه إيطاليا ما هو ناجم إلا عن غياب فضيلة خدمة المصلحة العامة التي لم يعد لها مكان في قلوب الإيطاليين كما كان عليه الحال من قبل. وانطلاقا من هذا رأى **ماكيافيللي** أنه لا تقدم لإيطاليا دون فضيلة خدمة المصلحة العامة التي لابد أن تكون ماثلة في قلب كل فرد من الأفراد كما كان عليه الحال قديما في الإمبراطورية الرومانية، إذ تحققت فيها العظمة والازدهار لما كان كل واحد من أفرادها يضحى بنفسه ومصالحه من أجل خدمة المصلحة العامة التي هي فوق كل اعتبار، وكانت النتيجة أن حققت روما لنفسها مآثر عظيمة مما ساهم في إقامة حضارة عريقة مكنتها من أن تسود لقرون. وبالتالي إذا أرادت ايطاليا الخروج

من محنتها فما عليها إلا أن تسلك طريق الفضيلة الذي سلكته روما لأنه ودون الفضيلة سوف يكون مصير الدول بين يدي الحظ والأقدار، ومن يترك نفسه بين يدي الحظ والأقدار فان العواقب التي يجنيها لن تكون مأمونة.

إلا أن **ماكيافيللي** أدرك تمام الإدراك أنه وفي ظل الفساد الذي انتشر واستفحل في ايطاليا لن يكون بإمكانها إصلاح نفسها بنفسها ما لم يتولى حكمها شخص بارع بحيث يغدو هو المشرع الوحيد للشعب، شخص أدرك أهمية خدمة المصلحة العامة، يكون من الكفاية والتبصر ما يمكنه من استخدام الوسائل جميع الوسائل التي يراها مناسبة وضرورية من أجل التحكم في الأفراد الذين يتميزون بالأنانية وهذا لغرض تطويعهم وحملهم على خدمة المصلحة العامة وهذا من أجل تحقيق الأمن والاستقرار وحفظ الوطن من الاندثار والضياع.

إن الأمير الذي يتحدث عنه ماكيافيللي يدرك غايته تمام الإدراك، كما يدرك الوسائل والسبل الكفيلة التي تحقق له غايته وهي الحفاظ على الدولة لذلك ليس من الغريب أن يلجا إلى أساليب القسوة والاستبداد ما دامت وسيلة فعالة من أجل بلوغ الغاية وتبعا لذلك فالوسائل التي يستخدمها الأمير أو الحاكم لا تحمل أي دلالة أو معنى بمعزل عن الغاية التي تحققها فهي محمودة إذا ساهمت في الحفاظ على الدولة وعلى العكس من ذلك إذا كانت عاملا من عوامل هدم الدولة.

بناءا على ذلك وانطلاقا من الحالة التي هم عليها الأفراد والغاية التي ينشدها الأمير أو الحاكم فان الأعمال التي يأتيها الأمير لا ينبغي أن توصف بأنها لا أخلاقية أو منافية لمبادئ الدين، وذلك لأن ضرورة حفظ النظام العام والحفاظ على الدولة وتقويتها في وسط هؤلاء الأفراد يحتم على الأمير أن يلجا إلى تعليق كل شيء بما في ذلك القانون والأخلاق والدين وهذا من أجل خدمة المصلحة العامة التي هي فوق كل اعتبار وهذا كله سعيا منه لإعادة هؤلاء الأفراد الذين طغى عليهم الفساد إلى الطريق الصحيح بالوسائل والعلاجات التي يبتكرها هو بفضل ما يتمتع به من خصائص تميزه عن غيره والتي تمكنه في الأخير

من تأسيس دولة ايطالية تحاكي إمبراطورية روما القديمة وتماثل كل من جاراتها(فرنسا واسبانيا).

ومن خلال ما سبق يمكن أن نصل غلى النتائج التالية :

أولا: النظرية السياسية التي طرحها **ماكيافيللي** نظرية خاصة بالدول التي دخلت مرحلة الضعف بعد أن انهارت مقوماتها الأساسية سوآء كانت اقتصادية، اجتماعية، سياسية أخلاقية.

ثانيا: تأكيد **ماكيافيللي** على أهمية وضرورة دراسة وفهم التاريخ فهما معمقا بوصفه مخزونا من الأحداث، يمكننا إذا درسناه بعناية كبيرة من استخلاص الكثير من العبر لمواجهة المشكلات الحاضرة وهذا من خلال تطبيق العلاجات التي أثبت التاريخ نجاعتها.

ثالثا: ضرورة أخذ عامل الضرورة في الحسبان وهذا بالنسبة للحكام والأمراء أثناء تسيير شؤون دولهم، وذلك بوصفه منطقا يحتم على الحكام سلوك طريق معين من أجل تحقيق الغاية المرجوة.

رابعا: لم يفصل **ماكيافيللي** بين الأخلاق والسياسة وإنما في إطار نظريته السياسية تصبح الأخلاق والدين أداة في يد السياسي يستعملها أو لا يستعملها وفق الظروف والأوضاع التي يجد نفسه فيها.

خامسا: إيمانه بأن مهمة صياغة تاريخ الدول التي تعرضت للانهيار ليس متاحا لجميع الأفراد بل لأفراد قليلين.

سادسا: لم يتطرق **ماكيافيللي** لمشكلة الفضيلة كما أتى على ذكرها الفلاسفة والمفكرون من قبل إذ ارتبطت عنده بميدان السياسة وليس في ميدان الأخلاق.

كثير هم الفلاسفة والمفكرون الذين تحدثوا عن الدولة، إلا أنه مع **ماكيافيللي** تصبح الدولة في أعلى الهرم حيث تصبح غاية الغايات، ولا قيمة تعلو فوق قيمتها ولا مكانة للأخلاق ولا للدين إذا تعرضت الدولة للاهتزازات والاضطرابات. إيمانا من **ماكيافيللي** بأن الدولة هي الكيان الذي إذا تعرض للانهيار والفساد فان كل شيء سوف يضيع معه بما في ذلك الأخلاق والدين والعادات والتقاليد، وبالتالي لا سلطة تعلو فوق سلطة وقيمة الدولة عند **ماكيافيللي** فالدولة أو لا وثانيا وأخيرا.

ومن خلال ما سبق لا يسعنا إلا أن نقول انه وبالرغم من الرفض الذي لقيته آراء **ماكيافيللي** حول طبيعة السلطة ومقوماتها التي تستند إليها منذ أن خرجت كتاباته إلى النور حتى يومنا هذا من طرف النقاد والمفكرين، إلا أن النظرية السياسية التي طرحها **ماكيافيللي** تبقي علامة فارقة في تاريخ الفكر السياسي، نتيجة للإضافات الكثيرة التي قدمتها والتي تؤهل أن نكن لصاحبها كل التقدير والاحترام.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر:

1- هيغل، **أصول فلسفة الحق**، ترجمة وتعليق وتقديم، إمام عبد الفتاح إمام(ط.3،بيروت:دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع،2007)،ص46.

2-ماكيافيللي، نيقولو. **المطارحات**، تر. خيري حماد،ط.1،بيروت:المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر،1962.

3-ماكيافيللى، نيقولو. **الأمير**، تر. عبد الرزاق عبيد، د. ط، الجزائر : دار تلانتيفيت للنشر.

4- ماكيافيللي، نيقولو. **الأمير**، تر. فاروق سعد، ط.12، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1982.

قائمة المراجع:

أ) باللغة العربية

1- أبوبكر إبراهيم التلوع، **الأسس النظرية للفكر الأخلاقي** د. ط، بنغازى : دار الكتب الوطنية للنشر، 1994.

2 . أحمد أمين، كتاب الأخلاق، (د. ط، القاهرة : كلمات عربية للنشر والتوزيع)، ص77.

3. إمام عبد الفتاح إمام، **الأخلاق والسياسة** ،د. ط، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة 2002.

4أميرة حلمي مطر، **الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها**، (د. ط، القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1997

5. ارنيست كاسيرر، **الأسطورة والدولة**، تر، أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي د. ط، مصر: المكتبة العربية، 1975.

6- بطرس بطرس غالي، محمد خيري، **المدخل في علم السياسة**، ط. 5، القاهرة : مكتبة الأنجلو مصرية، 1976

7. جلال الدين سعيد، **أبيقور الرسائل والحكم**، د. ط، تونس : الدار العربية للكتاب 1991.

8. جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، الجزء 3، تر. راشد البدراوي، تقديم أحمد سويلم العمري، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

9- جون توشار وآخرون، **تاريخ الأفكار السياسية**. تر. على مقدم ط. 2 بيروت : الدار العلمية للنسر والتوزيع، 1983.

10- ليو شتراوس، جوزيف كوربسي **تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوديكس حتى اسبينوزا** الجزء 1، تر، محمود سيد أحمد، مراجعة، إمام عبد الفتاح، القاهرة :المجلس الأعلى للثقافة، 2005.

11محمد مهران رشوان، **تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية**، د. ط، القاهرة : دار قباء، 1997.

12. محمود حمدي زقزوق، **مقدمة في علم الأخلاق**، ط.3، الكويت: دار القلم، 1963.

13- مشيل سينيلار، الماكيافيلية وداعي المصلحة العليا، تر، أسامة الحاج، ط.2،بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2002

14- ماكس هوركهايمر، **بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية**، تر. محمد على اليوسفي بيروت : دار التنوير للطباعة، 2006

15- ستيفن ديلو، **الفكر السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني**، تر. ربيعة وهبة القاهرة،1997.

16- فاروق سعد، **تراث الفكر السياسي قبل الأمير ويعده**، ط 24، بيروت : دار الآفاق الجديدة، 2002

17- فيدرين الين. **مكيافيللي**، تر. أميرة الزين، ط.1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994.

18- ريمون بولان، **الأخلاق والسياسة**، تر، عادل العوّاط، ط.2، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،1992.

19- شوفالي، جون جاك، **تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى القومية**، تر. محمد عرب صاصيلا، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985.

ب)- باللغة الأجنبية:

1-Gerard Colonna distria et rolandfrapet, **le art politique chez machaivel** ,(paris,liprairie philosophique, 1988.

المعاجم والقواميس :

. ابن منظور، **لسان العرب**، جزء 11، د. ط، القاهرة : دار المعارف.

2 . اندريه لالاند، **الموسوعة الفلسفية**، تعريب، خليل أحمد خليل، (ط.2، بيروت : منشورات عويدات، 2001.

3 . جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، د. ط ، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة

الفصل الأول
أسس ومنطلقات الفكر السياسي عند ماكيافيللي

مدخل..... 6
1- فساد الجنس البشري..... 8
2- النسق السياسي والنسق الطبيعي..... 19
3- الغاية والواسطة..... 27
خلاصة..... 33

الفصل الثاني
طبيعة الفضيلة عند ماكيافيللي

مدخل..... 35
1- مفهوم الفضيلة..... 37
2- الفضيلة والضرورة..... 53
3- الفضيلة السياسية والفضيلة الأخلاقية..... 59
خلاصة..... 66

الفصل الثالث
مكانة الفضيلة عند ماكيافيللي

مدخل..... 68
1- في تولي المناصب الإدارية للدولة..... 70
2- في تحقيق القوة العسكرية للدولة..... 76
3- في مواجهة الحظ..... 83
4-في أثر ماكيافيللي في الفكر السياسي بعده 92
خلاصة..... 102
خاتمة..... 104
قائمة المصادر والمراجع..... 109
فهرس الموضوعات..... 113